الفكـــر الإسلامي

إشراف

أ.د محمد جواد محمد سعيد الطريحي

رئيس لجنة عمداء كليات العلوم الإسلامية/ جمهورية العراق

مطابق لمفردات لجنة تطوير مناهج كليات العلوم الإسلامية

تأليف

أ.د. رعد شمس الدين الكيلاني

كلية العلوم الإسلامية / جامعة بغداد

أ.د. محمد هادي شهاب

كلية العلوم الإسلامية

جامعة تكريت

أ.م.د محمد حسين عبود

كلية العلوم الإسلامية

جامعة كربلاء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾

سورة الروم: من الآية ٨

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وأصحابه الكرام ومن ولاه إلى يوم الدين، أما بعد:

فان اللجنة العلمية التي تشرفت بجمع مادة الفكر الإسلامي من مصادره المتنوعة، تدعو الله أن تكون قد وفقت في معالجة قضايا الفكر بما يعزز القيم الإيمانية، والهوية الإسلامية .

وان اللجنة كان نصب أعينها مراعاة مفردات المنهج الذي اعتمد من قبل اللجنة الوزارية لتطوير مناهج كليات العلوم الإسلامية، وراعت اللجنة كذلك أن يكون المنهج ملائماً لمستوى تقبل الطلبة ومراعاة الظروف العصيبة التي يمر بها بلدنا العزيز، وأكدت على تقديم فكر إسلامي يعزز بناء وعي ثقافي يوحد المجتمع ويرتبط بجذور الأصالة، ويواكب المعاصرة ويساعد على الانطلاق ببلدنا نحو التقدم والتطور العلمي، والتأكيد على المشتركات والابتعاد عن كل ما يثير التعصب والكراهية والتطرف.

وفي هذه المناسبة تود اللجنة ان تسجل شكرها وامتنانها إلى الأستاذ الدكتور محمد جواد محمد سعيد الطريحي عميد كلية العلوم الإسلامية، رئيس لجنة عمداء كليات العلوم الإسلامية، لما أبداه من جهود في المتابعة والإشراف والتوصيات العلمية التي أَثرت الكتاب وساعدتنا على إتمام العمل. ومن الله التوفيق.

لجنة التأليف

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧م

الفصل الأول
التمهيد والتعريف بالفكر الإسلامي

الفصل الأول
التمهيد والتعريف بالفكر الإسلامي

تمهيد

عِندَمَا نَنْظُر إِلى تَأريخِ التَفْكِيرِ الإِسْلامِي وَالطَرِيق الذي سَلَكَتْهُ الأُمةُ الإسلامية على اختلاف طوائفها ومذاهبها، ولا ننزع فِيهِ إِلى مَذهَبٍ مِنَ المَذَاهِب بإحقاق أو إبطال، فإنَّنا نجد القرآن الكريم يتعرض بمنطقه في سنته المشروعة لجميع شؤون الحياة الإنسانية من غَيرِ أَن تَتَقَيَّد بِقَيدٍ أو شَرط . فَللقُرآن اصطكاكٌ مَعَ جَمِيعِ العُلومِ وَالصِّنَاعَات الخَاصّة بِأَطرافِ الحَيَاة الإنسانية وَمِنَ الواضِح اللائح من خلالِ آياتِهِ الدالة إلى التدبُّرِ والتَّفكِير والتَّذكُّر وَالتَّعَقُّل، أَنَّهُ يَحِثُّ حَثّاً بَالِغاً عَلى تَعاطي العلم وَرَفض الجَهل فِي جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّق بالسَّمَاويّات والأَرضيات والنبات والحيوان والإِنسان، مِن أَجزاء عالمِنَا وَمَا وَرَاءه من الملائكة والشياطين واللوح والقلم وغير ذلك ليكون ذريعة إلى معرفة الله سبحانه ومخافته الحقة .

وما يتعلق بسعادة الحياة الإنسانية من الأخلاق والشرائع والحقوق وأحكام الاجتماع . فالقرآن يؤيد الطريق الفطري من التفكير الذي تدعو إليه الفطرة دعوة اضطرارية لا معدل عنها حق ما تدعو إليه الفطرة من اليسر المنطقي . أما عن السنة النبوية فقد اعتبرَ القرآنُ الكريمُ فِي بيان مقاصدها، وعين لهم الأسوة في رسول الله "صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّم" فكانوا يحفظون عنه، ويقلدوه في جميع سلوكه، فأصبحت السنة مورداً مِنْ

مَوَارِدِ الفِكْرِ الإِسْلامِي مِنْ حَيث ما يقوله " عَلَيْهِ الصَّلاة والسلام " والأخذ بكل ما يفعل: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ سُوْرَةُ النجم، الآية: ٤.

وفيما يخص هذا الكلام يقول أحمد شلبي:" ثم إنَّ الآيات والأحاديث لم تكتفِ بالبحثِ عَنِ العِلْمِ وَالتَّرغِيبِ فِي طَلَبِهِ وَإِنَّمَا قَدَّمَتْ هِي نفسها أَفَانينَ مِنَ الفِكْرِ كَانَتْ مَجَالاً لِلدِرَاسَةِ وَالبَحْثِ فَخَلَقَتْ بذلك أَوَّل يَنْبُوع مِنْ يَنَابِيعِ الفِكْرِ الإِسْلامِي وقد سَارَ هَذَا اليَنْبُوعُ قَوِيَّاً مُتَدَفِّقَاً، وَسَارَتْ بِجَانِبِهِ ثَقَافَاتُ الأُمَمِ السَّابِقَة الَّتِي حَثَّ الإِسْلامُ عَلَى رِعَايَتِهَا . وَمِنَ اليَنَابِيعِ الفِكْرِيَّةِ الإِسْلامِيَّة الأَصِيلَةِ، تِلْكَ النُّظُمُ الَّتِي وَضَعَ الإِسْلامُ بُذُورَهَا إِذْ رَسَمَ للمُسلِمِين أَخْلاقَاً جَدِيدَةً وشَرَّعَ لَهَا فِقْهَاً، فَجَعَلَ الطَّابع الجَديد للأخلاقِ أَنْ تَكُون عَمَلِيَّة، وللسِّيَاسَة أَنْ تَكُون شرعية، وَالفَلْسَفَة الإِسْلامِية أَنْ يَكُون التَّوحِيدُ أَسَاسُهَا كَمَا فَرَضَ الدِّينُ الإِسْلامِي دِينَاً عَامَّاً لِجَمِيعِ البَشَرِ وَمَعَ أَنَّ القُرْآنَ الكريم أَعْطَى صُورَةً وَاضِحَةً قَاطعَةً عن هذه الاتجاهات فان التفاصيل الدقيقة عن ذلك تُرِكَتْ لِيَصِلْ لَهَا النَّاس عَنْ طَرِيقِ النَّظَرِ والفِكْرِ. فَلِلعَالَمِ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلَكِنْ هَلْ هُوَ قَرِيبٌ أَم بَعِيد ؟ أَو قَرِيب أو بَعِيد معاً، وأسماؤه الحُسْنَى كَثِيرَة وَلَكِن هَل هِيَ صِفَات ضرورية واقعية أو صفات تنسب لله مجازاً "[1].

وهنالك أَسئِلَة كَثِيرَة مُمَاثِلَة تَرَكَهَا القُرْآن الكريم للإنسان أي لِلعَقِلِ الذي يفكـر فيَحلَّهَا عَنْ طَرِيقِ التَّفْكِيـر وَالمُحَاوَلَة، وَيَكُـون الشَّخْصُ

[1] الفكر الإسلامي منابعه وآثاره ، د. احمد شلبي، دار الاتحاد العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط٥، ١٩٩٥ م. /٧٣.

مُسْلِمَاً إذا اعترَفَ بِوحْدَانِيَّةِ اللهِ سبحانه وتعالى وَبِصِحَّةِ رِسَالَةِ سيدنا مُحَمَّد "صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ" مَهْمَا كَانَت وجْهَة نَظَرِهِ فِي المَسَائِلِ الفَرعِيَّة الأُخْرَى الَّتي يتفق فِيهَا المُسْلِمُون وَيَخْتَلِفُون دُونَ أَن تؤثر على جوهر العقيدة الإسلامية، دون شك قائد ومرشد للعقل البشري، وأما نمو هذه الأفكار وازدهارها فقد ترك ليكون نتيجة الرعاية والفهم تحت نظر ومراقبة المذاهب والاتجاهات الفكرية الواعية الرشيدة.

والإنسانُ يَتَمَيَّزُ بِالفِكْرِ وَالعَقْلِ دُونَ المَخْلُوقَات، فَالحَيْوَانُ كما يقول الدكتور عبد القهار العاني:. " يَتَمَيَّزُ عَنِ الجَمَادِ بِالإِدْرَاكِ وَيَمْتَازُ الإنسانُ عَنْ سَائِرِ الحَيْوَانَاتِ بِالعَقْلِ، وَعَقْلُهُ هُوَ القُوَّةُ الرُّوحِيةُ الَّتِي يُمْكِن بِهَا التَفْكِير . وَتَفكِيره هُوَ نَظَرُهُ فِي مَعلوماتِهِ بِمُقْتَضَى ذَلِكَ الإرتبَاطِ عَلَى صُورَةٍ مَخْصُوصَةٍ تَوَصَّلَ بِهَا إِلَى إِدْرَاكِ أَمْرٍ مَجْهُول "[1].

إذاً:" التَفْكِيرُ إكْتِشَافُ المَجْهُولاتِ مِنْ طَرِيقِ المَعْلُومَاتِ وَالمُفَكِّرُ مُكْتَشِفٌ مَا دَامَ مُفَكِّرَاً وَلمَّا امْتَازَ الإنْسَانُ عَن سَائِر الحَيْوَانَاتِ بِالعَقلِ وَالتَّفكيرِ إمْتَازَ عَنْهُ بِالتَّنَقُّلِ وَالتَّحَوُّلِ فِي أَطْوَارٍ حَيَاتيةٍ وَنُظُمٍ مَعِيشَتِهِ بِمُكتَشَفَاتِهِ وَمُستَنبَطَاتِهِ فَمِنَ المَشْيِ عَلَى الأَقْدَامِ إِلَى التَّحْلِيقِ فِي الجَوّ

[1] الفكر الإسلامي الحديث، عبد القهار داود عبد الله العاني، مطبعة عصام المكتبة الوطنية، ط١، بغداد، العراق، ١٩٨٦ م . / ٤٩ .

مثلاً وبقي سَائرُ الحَيوان عَلَى الحَالِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا دُونَ أَيِّ إِنْتِقَال " [1].

ومن هنا نجد المفكرين ارتفع صوتهم بالدعوة الى أمرين أهمهما: "تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى، واعتباره – الدين – من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وتخبطه " [2]. أما ما يواجهنا اليوم من تحديات فكرية خطيرة، فسببها غياب الأمة عن فكرها الريادي، وغيبوبتها عن حضارتها العظيمة، حيث أن الفكر الإسلامي يمتاز بربانية دعوته، وعلو مقامه على الأفكار الوضعية البشرية، فلا يسعنا الا العودة معنوياً ومادياً لبناء حضارة الفكر الإسلامي من جديد .

أخيرا نقول: لا يسعنا في دراسة الفكر الإسلامي إلا أن نختار ما يناسب واقع اليوم، وننصح بالعودة إلى منهج الاعتدال القائم على محبة الآخرين وعدم تكفير المخالفين، ونقدم لطلبة العلوم الإسلامية مادة خالية من السموم الفكرية، آملين أن يوسع المسلمون صدورهم ويهتدوا إلى الصراط المستقيم الذي سار عليه نبينا محمد وآله الأطهار، وصحابته الأخيار، سلام الله عليهم أجمعين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

[1] تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، تحقيق: احمد شمس الدين، دار الكتب العلمية. بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ / ١٥١ –١٥٢ .

[2] الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي / ١٠٠.

تعريف الفكر الإسلامي

المبحث الأول: الفكر والعقل .

المطلب الأول: تعريف الفكر .

أولاً: الفِكر لغةً .

قال ابن فارس: " تردُّدُ القَلْب في الشَّيء، يقال تفكّرَ إذا ردَّدَ قلبه معتبِرا، ورجلٌ فِكِّير: كثير الفِكر "[1]، وقال ابن منظور: " الفَكرُ والفِكرُ إعمال الخاطر في الشيء، وجمعه أفكار، والفكرة كالفكر، والتفكر التأمل، والاسم الفكرُ والفكرة، والمصدر الفكر بالفتح "[2] وفكَّرَ: " يفكِّر، تفكيرًا، فهو مُفكِّر، والمفعول مفكَّر فيه وفكَّر الشخصُ: مارس نشاطه الذِّهنيّ وفكّر في الأمر: تفكَّر فيه، تأمّله، أعمل العقل فيه ليصل إلى نتيجة أو حلّ أو قرار "فكّر في المستقبل- يفكِّر في حل مشاكله بهدوء "[3].

ثانياً: الفكر اصطلاحاً.

قد لا نرى اختلافا في تعريف الفكر بين معناه اللغوي والاصطلاحي كما أقرَّ بذلك علماؤنا ومفكرونا .

---

[1] معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م /٤ :٦٤٦ .

[2] لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ت ٧١١هـ، دار صادر، بيروت، ط١، ب.ت ٥: ٣٤٥١ .

[3] معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م . /٣: ١٧٣ .

قال الغزالي رحمه الله: " الفكر إحضار معرفتين في القلب ليستثمر فيهما معرفة ثالثة "[١]. وعند الرازي: " الفكر جاء بمعنى "التأمل" ليدل على معنى الفكر "[٢].

أما التفكر فهو: " طلب المعنى بالقلب، وذلك لأن فكرة القلب المسمى بالنظر والتعقل في الشيء والتأمل فيه والتدبر له "[٣].

والتفكير:" اكتشاف المجهولات، من طريق المعلومات، والمفكر مكتشف ما دام مفكرا، ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوانات، بالعقل والتفكير، امتاز عنه بالتنقل والتحول، في أطوار حياته، ونظم معيشية بمكتشفاته، ومستنبطاته، فمن المشي على الأقدام، إلى التحليق في الجو مثلا، وبقي سائر الحيوانات على الحال التي خلق عليها دون أي انتقال"[٤].

وعند المعاصرين الفكر هو: " ظاهرة تاريخية واجتماعية، نمت بالعمل البشري والممارسة الاجتماعية، وتطورت خلال المراحل المختلفة

---

[١] إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ت ٥٠٥هـ، دار المعرفة، بيروت، ط١، د.ت / ٤: ٤٢٥

[٢] المنطلقات الفكرية عند الإمام الفخر الرازي: محمد العريبي/ ١٣١ .

[٣] التفسير الكبير، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن ابن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، ت ٦٠٤هـ/ ١٥: ٤١٩ .

[٤] تفسير ابن باديس / ١٥١ .

في تاريخ التطور الإنساني وليست اللغة إلا تعبير الاجتماعي الخارجي لعمليات الفكـــر الداخلية"[1]

الخلاصة: هي أن الفكر الإسلامي إفراز فكر المسلمين في ظل الإسلام من أفكار اجتهادية بشرية من الفلسفة والكلام والفقه وأصوله والتصوف والعلوم الإنسانية الأخرى منذ عصر الصحابة إلى اليوم في إطار الفهم الإسلامي وذلك أنه يضم كل ما أنتجه العقل الإسلامي في كل المجالات ولكن من وجهة إسلامية، فالمنهجية الإسلامية تحفظ للفكر هيبته عندما يتم الالتزام بها، ومن هذا المنطلق نُبعد جميع الفلسفات والمعتقدات المخالفة للإسلام ليبقى الفكر نقيا خاليا من الشوائب .

[1] الموسوعة السياسية، عبد الوهاب الكيالي، تحقيق: مجموعة من المؤلفين، المؤسسة العربية العالمية، ط٢، ١٩٨٥م ./ ٢: ٤٠٨ .

مكانة الفكر في المنظور الإسلامي:

قد يطلق على ((حركة العقل بين المعلوم والمجهول))[1]،أو ربما يعبر عنها بالفكر أو النظر،بمعنى ((اجراء عملية عقلية في المعلومات الحاضرة لأجل الوصول إلى المطلوب))[2]، وبعبارة أخرى هي مرحلة انتقال العقل من المعلومات المخزونة والحاضرة لديه، وتوظيفها باتجاه الحصول على المعلومات الغائبة عنه .

وقد وردت مفردتا الفكر والنظر، وكذا العقل في القرآن الكريم، مضافا لمفردات أخرى – سيمر بها البحث – مما لها علاقة مسيسة بمفهوم الفكر، تكررت مرات عديدة تكشف كثرتها وتكرارها، عن عظيم القرآن بالفكر الإنساني، وألفات النظر إلى أنه الأداة الأولى التي تهبه سبل الوصول الى الحق من جهة، وتميزه عن سائر المخلوقات الأخرى من جهة أخرى، والحق إن المتأمل لمضامين الآيات التي تحمل بين طياتها تلكم المفردات يلمس أنها أولا: تكشف عن مكانة الإنسان في الدين الإسلامي، التي منحته التكريم الإلهي قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ سورة الإسراء/ ٧٠، دون غيره من الكائنات الأخرى، التي جعلها سبحانه طوع أمره، وسخرها له، تحقيقا لهذا التكريم، قال جل شأنه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ

---

[1] الفضلي: عبد الهادي: أصول البحث، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي قم- ايران /٥٣.

[2] م. ن/٥٣.

﴿ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ ﴾ سورة النحل/ ١٢، ثم أن هذا التسخير بذاته، دعوة لإعمال العقل وتثوير الفكر، إذ يقول سبحانه في ذيل الآية آنفا: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ سورة الرعد/ ٤.

فإذا علمنا ذلك استوعبنا حقيقة المكانة العظيمة للفكر، والمقام الذي يتمتع به، تبعا للمقام الذي يحوزه حامله وهو الإنسان.

ثانيا: أنها تتجلى عن عظمة الدين الإسلامي وعالميته وإنسانيته، وأنه عقيدة قائمة على العلم والمعرفة، وأن وسيلته في كسبهما هو العقل والفكر، دون سائر الأديان الأخرى، التي جعلت بينها وبين العقل والفكر حاجزا، فأضحت هي في جانب، وعقل الإنسان في جانب آخر، فعطلت العقل وحجمت الفكر، وقتلت أسباب النظر فيه، وأعطته مساحة واسعة من السير في المجهول، والغرق في لجج الظلم والجهل، وسمحت له، بل دفعت به إلى عبادة مخلوقات، خلقت أصلا لتكون في خدمته.

والحق إن تعطيل أدوات الفكر عند أصحاب هذه الأديان، التي لا تشمل الأديان الأرضية أو البشرية، كعباد الشمس والقمر والنجوم والبقر، وسواهم، بل تشمل حتى الأديان السماوية، التي رفعت السماء يدها عنها، ولم تتكفل بحفظها أو حفظ كتبها، ونسختها بدين الإسلام،

فهي الأخرى، منعت العقل وعقلت الفكر، حين سمحت لمعتنقيها بالإشراك بالله، وإدخال البدع والأكاذيب فيها.

محورية الفكر في القرآن الكريم:

زخر القرآن الكريم بالآيات الداعية إلى إعمال الفكر في هذا الخلق المترامي، وبما يحتويه من عجائب صنع الله تعالى، ولو أننا أردنا استقصاء الآيات الواردة في الحث على التفكر والحض عليه، لاستلزم المقام مباحث ومباحث، ولكننا سنعرض ما يفي الغرض ويحقق المطلوب.

من هنا فإن كتاب الله العزيز تارة يحرك الأفكار نحو الخلق، كقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة الرعد/٣، وقوله جل شأنه مبينا مكانة الماء في بث الحياة في أنحاء هذا الكون المترامي، وأنه من أهم الأسباب التي منحت الكون الحياة، وقوله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة النحل/١١، ملفتا الأنظار ومحركا الأفكار باتجاه حقيقة، اختلاف الثمرات وتنوعها، مع كونها تتفتق من ماء واحد، وتراب واحد، وقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام)، حينما سئل عن طعم الماء فقال (عليه

السلام): ((طعم الماء طعم الحياة))[1]فسبحان الذي خلقها وسواها وفطرها، من كائن لا طعم له ولا لون ولا رائحة، ومن تراب أصم، ليهب تلك الحيوية والجمال الفائق والطعم الرائق والألوان المتعددة لتلك الأصناف المتنوعة من الفواكه والخضر والنباتات، التي خلقت لتشبع رغبة الإنسان، وتلبي احتياجاته الأساسية من البروتينات والفيتامينات، وسواها من العناصر الغذائية التي يحتاجها جسم الإنسان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ، وتارة أخرى يهيج أسباب النظر والتأمل في العقول نحو عجيب مخلوقاته سبحانه، قال جل عزه كاشفا عن أسرار النحل: ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل/٦٩ ، وتارة ثالثة يدعو الى التأمل في ماهية الخلق، وكيفية تناسل وتكاثر بني البشر، قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الروم/٢١،مؤخرا الرحمة عن المودة، لأن الزوجين يحتاجان إلى الرحمة في كبرهما، أكثر مما يحتاجان إلى المودة، فهما أأنس بالمودة في شبابهما، وأحوج للرحمة في شيخوختمها، ولا يخفى ما في لفظة (لتسكنوا) من إشارة واضحة على العلاقة الزوجية التي

[1] الكليني: الكافي ٦/ ٣٨١.

جعلها المولى سبحانه، منبعا للأمان والأطمئنان اللتان يسعى اليهما الإنسان، ويطمح على الدوام إلى الحضوة بهما.

ومما يلاحظ أنه سبحانه قال: ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، في ذيل كل آية من الآيات المارة آنفا مستخدما (لام) التأكيد، ولم يقل (آيات لقوم يتفكرون)،وهو ما يدعو بطبيعة الحال، بل يؤكد أهمية وخطورة التأمل والتفكر في عقل الإنسان ووجدانه، كونهما يوصلانه الى حقيقة كينونته وكينونة كل المخلوقات، وهو ما يسوقه عن طواعية واختيار محض الى الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى .

ومما تجدر الإشارة اليه أن عدد الآيات التي وردت منتهية بلفظ (يتفكرون)، هي عشر آيات بينات، هذا في قبال آيات أخرى تناولت ألفاظا ذات صلة، وردت لتؤكد ذات المعنى، في تحريك طاقات العقل نحو التفكر والتأمل، كلفظة يفقهون ويعلمون ويتذكرون وغيرها، قد يطول المقام بالوقوف عليها جميعا، وقد وردت لفظة (يعقلون)نحو اثنين وعشرين مرة في كتاب الله، متنوعة الأهداف والغايات بين دعوة أصحاب الألباب للتفكر في خلق الله مرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ...وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴾ سورة البقرة/ ١٦٤، وأخرى في حال الإنسان، قال سبحانه: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ ﴾ سورة

الصافات/ ٦٨، والتي تسفر عن حقيقة أن طول عمر الإنسان، لا يعد - دائما- نعمة يسعى الإنسان لنوالها، لأنها قد تكون ابتلاء يحلم الإنسان بالتخلص منه، وثالثة في شأن الكفار وما انطوت عليه سرائرهم من عمى البصيرة، دون عمى البصر قال جل شأنه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ سورة الحج/ ٤٦،وغيرها من الغايات المتنوعة والأهداف المختلفة، التي أراد النص القرآني من ورائها، إثارة مكامن الفكر ومصادر التأمل في عقل الإنسان، غير أن عدد الآيات التي انتهت بقوله تعالى: ﴿ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، هي أربعة آيات، كما وردت مفردات أخرى مساوقة لسابقاتها، وداعية الإنسان إلى التفكر في خلق الله سبحانه، قال جل شأنه: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ سورة الفجر/١٧ ؟؟؟.

والآية في الواقع لا تخلو من جملة من اللطائف والنكت، فقد قال الباري سبحانه (ينظرون)، ولم يقصد النظر بالعين المجردة فحسب، بل هي حض على التأمل والتدبر بخلق الله سبحانه، وإلا فإن مجتمع الجزيرة العربية مجتمع ألف الإبل، وهي دون أنظارهم آناء الليل وأطراف النهار، بالتالي فهي دعوة للتأمل والتفكر، ثم أنه سبحانه اختار الإبل دون غيرها من الحيوانات كونه من ذات البيئة التي ينتمون اليها.

أهمية الفكر عند أهل البيت (عليهم السلام):

سار أهل البيت (عليهم السلام)على سنة ونهج جدهم سيد الكائنات(صلى الله عليه وآله) في دفع الناس نحو التفكر والتدبر، وقد انعكس ذلك حتى على أدعيتهم الطاهرة.

واذا كان سائر الخلق يعرفون الله سبحانه وتعالى، عن طريق الرسل والأنبياء (عليهم السلام)، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ سورة الأنعام/٤٨، وقال جل شأنه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾سورة الإسراء/١٥، أو عن طريق مخلوقاته كالشمس والقمر والنجوم والجبال، وغيرها من عجائب صنع الله، التي تلزم العاقل بضرورة وجود خالق لها. وفي القرآن الكريم دعوة صريحة للتفكر في آيات الكون للوصول إلى الله تعالى عند طريق الفكر.

أقول إذا كان هذا هو السبيل الذي أقره المولى سبحانه لبني البشر، في معرفته وعبادته، وقبله منهم ؛لأنه يتلائم وقدراتهم العقلية وسعة تفكيرهم، فإن الأمر يختلف عند أهل بيت العصمة (عليهم السلام)،إذ أنهم عرفوا الله عن طريق الله، لا عن طريق مخلوقاته؛ لأنها المعرفة الأليق بجلال الله وبعظمته سبحانه، وفيما يأتي بعض أدعيتهم التي تكشف عن هذه المعرفة العالية السامية:

نماذج من أدعية أهل البيت عليهم السلام في التعريف بالخالق وأسمائه وصفاته:

أولها: دعاء الصباح للإمام علي (عليه السلام)،وما يتضمنه من معان روحانية ونسمات عرفانية، تدفع قارئه والمتطلع لها، الى التأمل في الذات الإلهية المقدسة، والتدبر في عجيب مخلوقاته، حتى أن أهل اللغة والبلاغة ليقفون حائرين، أمام السبك البياني الأخاذ، الذي درجت عليه فقرات الدعاء، حيث يقول(عليه السلام): ((اللهم يامن دلع لسان الصباح بنطق تبلجه، وسرح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه، وأتقن صنع الفلك الدوار في مقادير تبرجه، وشعشع ضياء الشمس بنور تأججه، يامن دل على ذاته بذاته.....الخ))[1]،حيث أن المقطع الأول من الدعاء، ـ الذي شبَه الصباح بالكائن الحي الذي له لسان دلع بنطق تبلجه، أي أخرج وأشرق ضياء الشمس المرتفع والمتألق بالإضاءة والإشراق ـ، يذكِرنا، بقوله تعالى: ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ سورة التكوير/١٨، الذي تضمن ذلك التشبيه الرائع للصبح بالإنسان.

وثانيها: دعاء عرفة، الذي جادت به علينا شفتا سيد الشهداء(عليه السلام)،وهو يناجي ربه سبحانه، حين يقول فيه:((كيف يستدل بك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى

---

[1] المجلسي: بحار الأنوار ٨٤/ ٣٣٩.

بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك ولاتزال عليها رقيبا.....الخ))[1]،ولا يدري المتأمل في النفحات الإلهية لتلكم الكلمات، كيف صِيغت، وكيف صُبت بهذا القالب العرفاني، الذي انفرد به أهل البيت(عليهم السلام)،دون غيرهم، فهم أجدر من يمتطي صهوة الدعوة إلى الله سبحانه؛ لأنهم أهل التوحيد وأساسه والداعين إليه والمروجين له، وما كلمات دعاء عرفة إلا مثالا حيا وأنموذجا راقيا لذلك، وهي تنقل إلينا تلك النسمات .

وثالثا: دعاء السحر للإمام زين العابدين وسيد الساجدين وهو يناجي ربه في السحر، وقد غارت النجوم ونامت العيون وهدأت الأصوات، بكلمات تعرب، عن عشق وخشية مفرطتين من الله، حين يقول:((الهي بك عرفتك، وأنت دللتني عليك، ودعوتني إليك، ولولا أنت لم أدر ما أنت)) [2]، وغيرها الأدعية والمناجاة، التي تكشف عن استخدام أهل البيت(عليهم السلام) لغة الدعاء، في حث الناس على التأمل والتفكر من جهة، وكونها معربة عن حقيقة مكانتهم، وأنهم أعرف الخلق بالله سبحانه، وأخوفهم منه، وأنهم الأولى والأجدر في الدعوة الى الله سبحانه، وحض الناس باتجاه إعمال العقل وتثوير الفكر من جهة أخرى.

---

[1] المجلسي: بحار الأنوار: ٦٤/١٤٢.

[2] الريشهري: محمد: ميزان الحكمة ٣/ ١٨٩٠.

وفي دعاء الأئمة (عليه السلام) صورة عديدة الى التفكر للوصول إلى الحق عن طريق التفكر في الخلق والآء الله تعالى والمعروف فان الدعاء اعمق أنواع العبادة.

والحق إن من يروم أن يعرف التوحيد حق معرفته، ويسعى للتقرب من الخالق سبحانه، لا محيص له من الغوص في أعماق تلك الأدعية وسبر أغوارها؛ لأنها تسفر عن التوحيد الرائق للإنسان واللائق بالذات الإلهية المقدسة.

من هنا فلا غرابة أن ينفرد أمير المؤمنين(عليه السلام)، بمعرفة خاصة توصله إلى الله، وذلك حين سأله يهودي، قائلا: فأخبرني أعرفت الله بمحمد أم محمدا بالله؟ فقال: عليه السلام: ما عرفت الله بمحمد ولكن عرفت محمدا بالله؛ لأن محمدا محدود مخلوق، وعبد من عباد الله، اصطفاه الله واختاره لخلقه، وألهم نبيه، كما ألهم الملائكة الطاعة، وعرفهم نفسه بلا كيف ولا شبه[1].

وهو ما يكشف لنا عن حقيقة عبادة الأحرار التي تميز بها أمير المؤمنين، حين يقول:((ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا في جنتك، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك))[2].

---

[1] الأميني(ت١٣٩٢هـ): الغدير، ط٣(١٣٩٢هـ)، دار الكتب العربي بيروت ـ لبنان ٧/ ١٨١

[2] الكليني: الكافي ١/ ٣٣٧.

ولاشك أن مقام أمير المؤمنين عليه من أسمى المقامات وأرفعها وللحق أن العبارة أعلاه تصور ارتقاء الايماء عنده عليه السلام التي تؤكد على أن غاية العبودية هي اخلاص العبادة لله تعالى وابتغاء وجهه الكريم ولكن للوصول إلى هذه المرتبة لابد من الترقي بالنسبة للسالكين طريق الحق ودون هذه المرتبة درجات تبدأ بالتدبر في آيات الله المتطورة في الكون والمقروءة في الكتاب الكريم وقد أشار القرآن الكريم إلى الخوف من النار وطلب الجنة لكن العبارة أشارت إلى نهاية مطالب العبد مع الله جلت قدرته فغاية العبد هي قصد عبادته تعالى بغض النظر عن الجنة والنار لأنه تعالى يستحق العبادة ولا معبود سواه.

لذا فقد ورد عن أئمة الهدى(عليه السلام)،قولهم: ((اللهم عرِفْني نفسك، فإنك إن لم تعرِفْني نفسك، لم أعرف نبيك، اللهم عرِفْني رسولك، فإنك إن لم تعرِفْني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرِفْني حجتك، فإنك إن لم تعرِفْني حجتك ضللت عن ديني)) [1]، ودعائه (عليه السلام)، مضافا لبيانه حقيقة التوحيد، ومرتبة النبوة، فهو بصدد بيان مكانة الإمامة وخطورتها ؛لذا نقل لنا التفتازاني (ت٧٩١هـ) في مقاصده، ما هو قريب

[1] المجلسي: بحار الأنوار ٦٧/ ١٨٦.

من ذلك، حديث الرسول(صلى الله عليه وآله):((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)) [1].

والأدعية لا تقل مقاما عن الأحاديث المنقولة عنهم في تشجيع العباد على التنقيب العقلي والبحث الفكري في بدائع صنعة الله، فقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام)، قوله:((إياكم والتفكر في الله، فإن التفكر في الله لا يزيد إلا تيها)) [2]، ثم أن الإمام يبين سبب ذلك فيقول:((إن الله عز وجل لا تدركه الأبصار ولا يوصف بمقدار)) [3]، كما ورد عنه (عليه السلام) قوله: قال أمير المؤمنين(عليه السلام):((التفكر يدعو الى البر والعمل به)) [4]، ((وعن الحسن الصيقل قال: قلت لأبي عبدالله(عليه السلام):تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قال: نعم، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يتفكر؟ قال: يمر بالدار والخربة، فيقول: أين بانوك؟ أين ساكنوك؟ مالك لا تتكلمين)) [5]، والحديث ترجمان وتطبيق عملي لقوله تعالى:

---

[1] التفتازاني(ت٧٩١هـ): شرح المقاصد في علم الكلام، ط١(١٤٠١هـ)، دار المعارف النعمانية ٢: ٢٧٦

[2] المجلسي: بار الأنوار ٦٧/١٨٦

[3] المجلسي: بار الأنوار ٦٧/١٨٦

[4] الريشهري: محمد: ميزان الحكمة ٣/١٨٩٢.

[5] البرقي: أحمد بن محمد(ت٢٧٤هـ):المحاسن، تحقيق جلال الدين الحسيني، ط(١٣٧٠هـ)، دار الكتب الإسلامية، طهران ١/٢٦.

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ سورة الفرقان/ ٤٠،ويروي المحدثون عن الإمام الصادق(عليه السلام) ومحاججاته مع الدهريين، ومنهم ابن أبي العوجاء، الذي كان من جملة محاوراته مع الإمام قوله:((ذكرت الله فأحلت على غائب، فقال: أبو عبدالله: ويلك كيف يكون غائيا من هو مع خلقه شاهد، وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويرى أشخاصهم ويعلم أسرارهم، فقال ابن أبي العوجاء: أهو في كل مكان؟ أليس إذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟ فقال أبو عبدالله(عليه السلام): إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل عن مكان وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار اليه ما يحدث في المكان الذي كان فيه، فأما الله العظيم الشأن الملك الديان فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان))[1]،وروي عن هشام بن الحكم عن الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام):((يا هشام إن لكل شيء دليلا، ودليل العقل التفكر، ودليل التفكر الصمت، ولكل شيء مطية، ومطية العقل التواضع))[2]وهكذا في كثير من الأحاديث التي يقصر المقام على احصائها.

---

[1] الكليني: الكافي ١/١٢٦.

[2] م.ن ١/١٦.

أهمية الفكر عند جمهور علماء المسلمين:

ينقل لنا الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)في تفسيره عن ابن المنذر عن عون قال: سألت أم الدرداء، ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟؟– وهو أحد أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله)–، قالت: التفكر والاعتبار، كما ينقل لنا عن ابن أبي الدنيا عن عامر بن قيس قوله: سمعت غير واحد لاأثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم)يقولون: أن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر[١]. الأمر الذي ينقل تأثر الصحابة بمضمون الآيات، التي تدعوهم إلى الإعتبار والاتعاظ والتفكر، كونها ركيزة مهمة من ركائز الإيمان.

ويذكر لنا ابن عربي في تعليقه على قدرة وحد العقول وأن لها:((حد اتفق عنده من حيث هي مفكر وآية مناسبة بين الحق الواجب الوجود لذاته وبين الممكن...الخ))كلامه[٢]،وهو بصدد بيان محدودية العقل والفكر – كما مر علينا – في ادراك كل الغيبيات، وقد ورد في تفسير الرازي لقوله تعالى: ﴿ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴾ سورة الإنعام/٩٨، قوله: ((لقوم يتفكرون ويتأملون ويستدلون بالمحسوس على المعقول وينتقلون من الشاهد الى الغائب))[٣]، وهو تأكيد على مهمة الفكر

---

[١] ظ: الآلوسي: تفسير الآلوسي ٤/١٥٩.

[٢] المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣/٣٤٥.

[٣] الرازي: تفسير الرازي ١٣/١٠٢.

تتلخص في استخدام العقل في المحسوس الشاهد، للوصول الى المعقول الغائب.

ويذكر لنا ابن كثير(ت٧٧٤هـ)، بعض معوقات التفكر وهي الغفلة، وذلك حين يتناول تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ سورة يوسف/١٠٥، حيث يقول: ((يخبر الله تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله، ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض، من كواكب زاهرات ثوابت وسيارات، وأفلاك دائرات والجميع مسخرات))[1]، وقد كان من نتائج هذه الغفلة، انصراف الناس عن معرفة الله والامتناع عن شكره سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ سورة البقرة/٢٤٣، أما الشاكرين فإن المولى سبحانه وتعالى، جازاهم بأن جعلهم يفقهون آياته سبحانه، ويتمتعون بنعمة التفكر بآلائه، قال جل شأنه: ﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ سورة الأعراف/٥٨.

---

[1] ابن كثير(ت٧٧٤هـ): تفسير ابن كثير، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، ط(١٤١٢هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.لبنان ٢/٥١٢.

تفسير القرآن الكريم والفكر الاسلامي

يعد التفسير أول ميادين الفكر الإسلامي وأجلُّ فروعه لارتباطه بالقرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ((ناطق لا يعيى لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه))[1]،محرك العقول، ومنجم العجائب والغرائب، ومهيج دفائن الأفكار، ولا يمكن أن نجد أفضل ممن هو قرين القرآن ولصيق بيانه، ـ القرآن الناطق، العالم بطرق السماء أكثر من طرق الأرض ـ علي(عليه السلام)،علما بكتاب الله، ووصفا لمكانته وعظمته، حيث يقول:((كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله))[2]، وقوله (عليه السلام): ((وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به))[3].

من هنا فإن((القرآن الكريم كتاب أنزل لكافة أفراد البشر على اختلاف مستوياتهم وقابلياتهم، فكانت عباراته للعوام، وإشاراته للعلماء، ولطائفه للأولياء، وحقائقه للأنبياء (عليهم السلام))[4]،وهو كتاب

---

[1] محمد جواد مغنية(ت١٤٠٠هـ):في ظلال نهج البلاغة، ط١(١٤٢٧هـ)، مطبعة ستار ٢/٢٧٧.

[2] ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٨/٢٨٧.

[3] م.ن ١/٢٨٨.

[4] الوحيد الخراساني(معاص)ر: منهاج الصالحين ١/١٥٠.

متجدد، في كل زمان ومكان، يهب بأرياحه على من استنطقه، وقلَب النظر فيه وأشغل الفكر في معانيه، وأعمل التأمل في مراميه، وهو ناسخ الكتب السماوية، وملزم للناس باتباعه ؛لأن فيه حل لكل مشكلة، وفيه تبيان لكل شيء. فالقرآن الكريم هو محرك الفكر ومستجلب النظر.

ولما كان التفسير هو العمل العقلي لبيان معاني الكتاب بالاستناد على ضوابط وصفها العلماء، سنتناول في هذا المبحث جملة من المطالب، التي ستقف على تلكم المعاني، كمحاولة للكشف عن نزر يسير مما يتعلق بكتاب الله الخالد.

أصناف التفسير القرآني:

التفسير في اللغة((مأخوذ من فسر المشتق بالاشتقاق الكبير من السفر، وهو الكشف والظهور . يقال: أسفر الصبح إذا ظهر، وأسفرت المرأة عن وجهها إذا كشفته، أو هو مأخوذ من فسر يفسر، كضرب يضرب، أو كنصر ينصر، فسرا والفسر: هو الإبانة وكشف المغطى، تقول: فسرت الشيء إذا بينته، وقال اللغويون أيضا: إن التفسير هو كشف معنى اللفظ وإظهاره)) [1]، وقد عرفه الزركشي(ت٧٩٤هـ) بأنه: ((علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه . واستمداد ذلك من علم اللغة

[1] الطبرسي (ت٥٤٨هـ): تفسير مجمع البيان، تحقيق لجنة من العلماء والمحققين المختصين، ط١ (١٤١٥هـ)، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ـ لبنان ١٧/١.

والنحو والتصريف، وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ))[1].

وعرفه بعض الباحثين المعاصرين يأنه: العلم الباحث عن تبيين دلالات الآيات القرآنية على مراد الله تعالى، وبعبارة أخرى هو إزالة الخفاء عن دلالة الآية على المعنى المقصود[2].

أي إن التفسير هو الكشف عن مراد الله تعالى من جهة بيان أحكامه وعبره وحِكمه، ونحو ذلك مما هو متعلق بكتاب الله العزيز.

لقد ترك لنا التراث الفكري الإسلامي المتعلق بكتاب الله العزيز، بصمات فكرية واضحة، وكان التفسير نموذجاً لبواكير النتاج الفكري لدى علماء الإسلام وكشفت هذه البصمات عن حجم المساحة الواسعة التي، كان يتحرك بحدودها المفسرون، ممن أوتوا حظا وافرا وتوفيقا عظيما، في الغور في أعماق النص القرآني، واستخراج مكنوناته .

وقد أفرزت العقلية الإسلامية ألوانا من التفاسير المختلفة، عكست التوجهات الفكرية المختلفة، مستقاة من مدارس ومذاهب إسلامية متنوعة .

---

[1] الزركشي(٧٩٤هـ):البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١(١٣٧٦هـ)، دار احياء الكتب العربية ١٣/١.

[2] جعفر السبحاني(معاصر): المناهج التفسيرية في علوم القرآن، نشر مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)/ ١١.

غير أنها مع اختلافها، فإنها تتفق جميعا في مرجعية النقل والعقل، واعتمادهما مصدرا في تفسير القرآن الكريم.

من هنا فهناك لونان من التفاسير، هي التفاسير النقلية والتفاسير العقلية، وإذا كان تفسير القرآن في السنوات الأولى المتاخمة لعصر الرسالة المباركة، علماً مرتبطاً بالكشف عن دلالة الآيات القرآنية ويدور حول النقل غير أنه كلما ابتعد الجهد التفسيري عن عصر الرسالة، كلما كان أدعى لأن يدخل ما ليس في التفسير فيه مثل التفاسير الكلامية والاشارية الصوفية وغيرها سنذكرها لاحقاً.

وكيفا يكن الأمر ـ وبناء على مرجعية العقل والنقل في التفسير ـ فإنه يمكن أن نصنف التفاسير على النحو الآتي، وفقا للمرجعية المذكورة:

فالتفسير العقلي: هو التفسير الذي يُعتمد على الفهم العميق لمدلول العبارات القرآنية، وإعطاء الفكر مساحة كبيرة للغوص في أعماق الآية [1]، ومن نماذجه:

١. التفسير بالعقل الصريح.
٢. التفسير على ضوء المدارس الكلامية.
٣. التفسير على ضوء السنن الاجتماعية.
٤. التفسير على ضوء العلم الحديث.

[1] ظ: جعفر السبحاني: المناهج التفسيرية في علوم القرآن/٦.

٥. التفسير الباطني.

٦. التفسير الصوفي.

أما التفسير النقلي: أو التفسير بالمأثور فهو((التفسير المعتمد على ما جاء في القرآن نفسه من تبيان لبعض آياته))[1]،وبما أُثر عن أهل البيت (عليهم السلام)،والصحابة الكرام، ومنها:

١. تفسير القرآن بالقرآن.

٢. تفسير القرآن باللغة العربية وقواعدها.

٣. التفسير بالمأثور.

وربما أضاف بعضهم للتقسيمات المرة آنفا، تقسيمات جديدة، مثل: التفسير الكلامي: الذي يتناول الآيات المنطوية على الحجج الكلامية المثبتة لأصول الدين، والتفسير الفقهي أو تفسير آيات الأحكام: الخاص بالآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية، كآيات الأحكام ونحوها، والتفسير العلمي: الذي مرت الإشارة إليه في المطلب السابق، وهو التفسير الذي يتناول الآيات ذات البعد العلمي، كالآيات الكونية المتحدثة عن حركة الشمس والقمر والكواكب وكروية الأرض ونظائره.

والتفسير الإجتماعي: وهو التفسير المتعلق بالآيات المتعلقة بالجوانب الإجتماعية كبناء الأسرة، ومطلق العلاقات الإجتماعية والإرث ونحوها، والتفسير التدبري: وهو التفسير((الذي يعتمد غالبا على الفهم

[1] ابن كثير: تفسير ابن كثير ١٨/١ المقدمة.

العميق والإدراك المركّز لمعاني الألفاظ القرآنيّة بعد إدراك مدلول العبارات القرآنيّة وفهم دلالاتها فهما عميقا ودقيقا، ثم ربطها بواقع الحياة البشريّة، وفهم أبعادها وجوانبها المختلفة في الآمال والآلام والطموحات والمشاعر والتفكّرات))[1]،والتفسير الشمولي: وهو التفسير الجامع بين كلمات القرآن وأحاديث المعصومين(عليهم السلام)، ونحوها.

لقد أعطى النص القرآني ميدانا واسعا لعلماء المسلمين ـ من المفسرين والباحثين في الشأن القرآني ـ لأن تجول أفكارهم وتصول عقولهم، في رحاب القرآني، الذي لا يمكن لأحد أن يحيط بحدوده ؛كون أن النص القرآني، كما مر علينا، نص ولود ومتجدد ومعطاء، ولا ينضب عطائه مادامت السموات والأرض، ولا ينال عطائه، إلا من أخلص النية ووُهب التوفيق وعقد العزيمة، لينال شرف التسابق في مضمار القرآن ليحضى بسعادة الدارين.

ومع أن المنظومة الفكرية الإسلامية حافلة، بالمفسرين وزاخرة بالعلماء، الذين افنوا أعمارهم في خدمة القرآن، وأورثوا لنا تراثا قرآنيا فاخرا، أغنى الفكر الإسلامي والمكتبات الإسلامية على حد سواء، لكنه لا مناص من التنبيه إلى أن رسول الرحمة(صلى الله عليه وآله)،حصرا مهمة

[1]الشيرازي: محمد (ت١٤٢٢هـ): تقريب القرآن إلى الأذهان، ط١ (١٤٢٤هـ)، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان١/٤٨.

التفسير بجهة واحدة فحسب، دون غيرها؛ وما ذلك – في تقدير الباحث– إلا للأسباب الآتية:

أولا: امتثالا لأمر الله تعالى، الذي أمره بالإعلان عنها والتصريح بحقيقتها؛ إتماما للحجة على العباد، وهم أهل البيت (عليهم السلام)، فقد روى الإمام أحمد ابن حنبل (ت٢٤١هـ)،وغيره ((عن أبي سعيد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم):انى تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض))[1].

ثانيا: لأنهم صنو القرآن، وأهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله). وأهل البيت أدرى بالذي فيه ـ وهم الإمتداد الطبيعي لجدهم(صلى الله عليه وآله)، وهم المنصبون من قبل الله في حفظ كتاب الله الشريعة.

لذا فهم الأدرى بمراد الله تعالى، والأعلم بحدوده وأحكامه سبحانه وتعالى، وهم الأجدر والأقدر والأصدق على إيصال رسالة جدهم إلى الناس، بل هم الأقرب إليهم والأكثر أثرا في نفوسهم، لما يتمتعون به من صفات الكمال وسمات الجلال، التي لم يحض بها غيرهم، ودونك تاريخهم وسيرتهم، لتبحث بين ثناياها لتجد ما يسرك من كرام

---

[1] احمد بن حنبل(ت٢٤١هـ): المسند، دار صادر بيروت، لبنان ١٣/٣+ الحاكم النيسابوري ١٠٩/٣، والهيثمي: مجمع الزوائد ٨٨/١، وغيرهم كثير.

الخصال وطاهر الفعال، ولتعلن عن عجزك التام في أن تجد لهم زلة في فعل أو تقصير في عمل، أو تحضى من أحدهم عجزا في عبادة أو سوء في عادة.

ثالثا: لكي لا تتعدد الطرق والمشارب، ويكثر الخلاف المذموم، أما الخلاف في التأويل على وفق الضوابط فلا بأس به، لأن في هذا الاختلاف يصبح الخوض بتفسير آيات القرآن الكريم، ميدانا للتنازع والتناحر، من أجل إثبات صحة العقائد والمذاهب، فيسعى كل مذهب إلى إثبات أحقيته، دون غيره من المذاهب، من خلال تأويل الآيات، وحملها على غير مرادها، فتختلف السبل وتكون أسباب التيه والضلال أقرب الى الناس من أسباب الهدى، فيكون ذلك مدعاة لظهور فرق الضلالة ومذاهب الفساد، وهو ما حصل فعلا، وها هي الفرق التكفيرية والمذاهب المتطرفة التي، أولت آيات الكتاب بحسب أهوائها، لتبيح تكفير المسلمين ووجوب قتلهم وهتك حرماتهم، وغيرها من الجرائم، التي يندى لها ويأنف ويستنكف من ارتكابها حتى الحيوان.

المطلب الثاني: العقل .

أولاً: تعريف العقل لغةً .

يقول ابن فارس: " العين والقاف واللام أصلٌ واحد منقاس مطرد، يدلُّ عُظْمُه على حُبْسة في الشَّيء أو ما يقارب الحُبْسة. من ذلك العَقْل، وهو الحابس عن ذَميم القَول والفِعل . قال الخليل: العَقل: نقيض الجهل. يقال عَقَل يعقِل عَقْلا، إذا عرَفَ ما كان يجهله قبل، أو انزجَر عمّا كان يفعلُه. وجمعه عقول." [١] " والعاقل من يحبس نفسه ويردها عن هواها أن يمسكها ويمنعها، وقيل العقل التمييز الذي يميز الإنسان عن الحيوان " [٢].

والأريب " العاقل، والإرْبُ: العقل " [٣].

والعقل عند الزبيدي هو: " قوة المهيأ لقبول العلم، وبه يستنبط العاقل الأمور "[٤].

---

[١] معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس ٤: ٦٩ .

[٢] لسان العرب / ١١: ٤٥٨

[٣] أدب الكتاب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ت ٢٧٦هـ، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ب.ت / ١: ١٧ .

[٤] تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، ت ٨١٧هـ، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٣، ب.ت / ٨: ٢٥ .

وقال الفيروزآبادي: "وعقل الدواء بطنه يعقله، ويعقُلُه: أمسكه، والشيء: فهمه، فهو عَقول، والبعير: شدَّ وظيفه إلى ذراعه " [1].

ثانياً: تعريف العقل اصطلاحا .

العقل: "جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان، وقيل العقل نور في القلب يعرف الحق والباطل، وقيل العقل جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف" [2].

وقيل العقل " قوة للنفس الناطقة وهو صريح بأن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة وأن الفاعل في التحقيق هو النفس، والعقل آلة لها بمنزلة السكين بالنسبة إلى القاطع، وقيل العقل والنفس والذهن واحد إلا أنها سميت عقلا لكونها مدركة وسميت نفسا لكونها متصرفة وسميت ذهنا لكونها مستعدة للإدراك، وما يعقل به حقائق الأشياء قيل محله الرأس وقيل محله القلب " [3].

ونقل القرطبي رحمه الله تعالى أن العقل: " هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعاني وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحي والعقل عرض

---

[1] القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨ ، ١٤٢٦هـ/ ١٩ .

[2] التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، ت ٨١٦ هـ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١: ١٩٧ .

[3] المصدر السابق .

يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا. وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني وغيرهما من المحققين العقل هو العلم بدليل أنه لا يقال عقلت وما علمت أو علمت وما عقلت"[1].

أما من وجهة نظر الفلاسفة:

فالعقل: " جَوْهَرٌ لطيف في البَدَنِ ينبثّ شعاعه منه بمنزلة السِّرَاج في البيت، يفصل بين حَقَائق المعلومات. ومنهم من قال: إنه جَوْهَرٌ بسيط" [2] وقد جمع جميل صليبي آراء الفلاسفة في العقل فقال:. " أما الفلاسفة فإنهم يطلقون العقل على المعاني التالية: الأولى ان العقل جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها، والثانية ان العقل قوة النفس التي يحصل تصور المعاني وتأليف القضايا والأقيسة، والثالثة أن العقل هو قوة الإصابة في الحكم، والرابعة ان العقل قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية " [3].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، ت ٦٧١ هـ، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٣ هـ/ ١: ٣٧٠ .

[2] اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨ م / ٢: ٣٠ .

[3] المعجم الفلسفي، الدكتور جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، ط٢، بيروت، ١٩٨٢ / ٢: ٨٥ . ٨٦ .

اما بعيدا عن هذه الاختلافات التي تدل على اختلاف مذاهب المفكرين في الاهتداء إلى تعريف العقل، فيعرفه شيخ الإسلام تعريفاً مستنبطا من القرآن الكريم مباشرة، حيث يشير الى انه الآلَة التي تقوم بالعاقل فيميز بها ويدرك بواسطتها المدركات، لأنه هنا مناط التكليف والفارق بين الحق والباطل، او بين الخير والشر . فيقول رحمه الله: " العقل في كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين: هو أمر يقوم بالعاقل، سواء سُمِّي عرضاً أو صنعة، ليس هو عينا قائمة بنفسها "[1] ، وهذا التعريف يؤكد على أمر وهو ما ذهب الأشاعرة إليه من أن الشرع سابق للعقل على عكس المعتزلة (الذين أعطوا للعقل دوراً أولياً وسابقاً على الشرع، وجعلوا الدليل السمعي تابعاً للدليل العقلي غير ان أسبقية الدليل العقلي على الشرعي، لا يعني وجود التعارض بينهما فهما متفقان ومتطابقان)[2] .

---

[1] مجموع الفتاوى ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، ت ٧٢٨هـ، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط١، ١٤١٦ هـ/ ٩: ٧٢١ .

[2] تفسير السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، ت ٤٨٩هـ، تحقيق ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ / ٥: ٢٣٧ .

ثالثاً: محل العقل .

أعطى العلماء رأيهم حسب استنباطهم للنصوص الشرعية في محل العقل .فقال السمعاني:" إن محل العقل هو القلب بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ سورة ق، الآية:٣٧ ." [١] وقيل: " إن العقل محله الدماغ ولا مانع من ذلك فإن القلب هو الذي يبعث على إدراك العقل وإن كان محله خارجا عنه "[٢].

ويقال: " فلان خفيف الدماغ أي: خفيف العقل ." [٣]

ومن هنا يبين السمعاني رحمه الله تعالى، خطأ الناس في اطلاق معنى العقل قائلاً: "ويخطئ الناس في بعض الأحيان في فهم معنى "العقل" ؛ ويظنون أن العقل هو إطلاق الحبل على الغارب للأفكار دون انتظام او مسئولية، ونقول: افهموا أولاً معنى كلمة العقل حتى تعرفوا مهمته " [٤].

وفي ختام الكلام عن تعريف العقل نصل الى حقيقة معلومة، لخصها الدكتور عبد المعطي محمد بيومي قائلاً: " إن العقل هو جوهر

---

[١] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ت ١٢٥٠هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣ / ٣: ٦٥٨ .

[٢] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ت ١٢٥٠هـ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣ / ٣: ٦٥٨ .

[٣] تفسير السمعاني / ٥: ٢٣٧ .

[٤] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، مصر، ط١، ١٩٩١م / ١: ١٩٥٧

الإنسان ومركزه في الدماغ، ونوره في القلب، وبدونه يفقد الانسانُ ميزانه، فهو صفة ينتقل بها الإنسان من العلم بالضرورة إلى العلم بالنظريات انه متوقف على سلامة آلاته التي هي الحواس، وأنه مناط التكليف، ومن ثم فإن الشرائع موجهة إليه في الأساس، ومنوطة به في الأداء، فإذا سقط العقل سقط التكليف "[1].

رابعاً: مكانة العقل في الإسلام

١. مكانة العقل في القرآن الكريم:

القرآن الكريم أولى اهتماما كبيرا لبيان حقيقة العقل ومراتبه وكيفية تأثره وتأثيره، ولكن عبر اهتمامه بالعقل العملي، وهو العقل القابل للتطور والترقي، الذي يؤدي إلى ادراك الحق الواجب اتباعه، وادراك الباطل اللازم اجتنابه، فالعقل في القرآن يمثل الجانب التطبيقي في الوعي الإنساني، وهذا لا يعني إهمال العقل بوصفه مملكةً للتفكير أمام الوهم والخيال، كما لا يعني إهمال المدركات الأولية للعقل، كيف والقرآن من خلال محاجته مع الكفار والمنافقين وجميع البشر انما يرتكز على العقل بوصفه آلة إدراكية عامة يشترك فيها الجميع وتكون حجة على الناس جميعا.

---

[1] مقال بعنوان دور العقل في الخطاب الديني، للدكتور عبد المعطي محمد بيومي منشور على الموقع الرسمي للأزهر الشريف http://elazhar.com/conf_au/13/38.asp .

وهكذا فقد أوجب الله سبحانه وتعالى على عباده ان يفكروا ويتفكروا فقال عز من قائل: ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ سورة النحل، الآية: ٣٦ .

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ سورة المؤمنون، الآية: ٨٠ .

ويستمر القرآن مستعرضا مكانة وأهمية العقل ليثبت أن الإنسان لو لم يمنحه الله العقل، لكان أضل من الحيوان، ولما كان خليفة وسيداً في الأرض.

ويبين الدكتور عبد الله قادري الأهدل في مقال رائع يتحدث فيه عن منزلة العقل قائلاً: " فترى القرآن الكريم يجول بالعقل في السماء-شمسها وقمرها ونجومها وكواكبها ومائها-وفي الأرض-بخيراتها، من زروعها و أشجارها وبحارها وأنهارها وجبالها وسهولها، ويجعل ذلك كله مجالا للعقل ليتفكر فيه ويتذكر ويهتدي ويشكر، ومن شُكْر ذلك استغلالُ هذا الكون في مصالح العباد على أساس هدي الله تعالى. ومن تلك الميادين: فقه نصوص القرآن والسنة، والتعمق في فهمها واستنباط ما تحتاج إليه البشرية منها، لتتقي ربها وتسير في تصرفاتها على منهجه، مع فهم أسراره وحكمه حيث أمكن ذلك، وإلا فالتسليم المطلق لشرع الله تعالى، فإن

التسليم لشرع الله هو عين الفقه والعقل، وعدم التسليم لذلك هو عين الجهل والخطل. "[1]

والقرآن الكريم مليء بما يفتح للعقول أبواب الإدراك ضمن نطاقها الشرعي الصحيح قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ سورة الحج، الآية: ٤٦.

" فما يظهر من هاتين الآيتين، وأمثالهما تبين أن في الإنسان قوى مدركة للأشياء، وأن من هذه القوى: السمع والبصر والقلب؛ أي العقل "[2]

وأنّ المعرفة الإنسانية تعتمد على قوى العقل السليم، أي أنّها اكتسابية .

" كذلك استعملت كلمة القلب والفؤاد بمعنى العقل، وهذا أمر معروف في الجاهلية وفي الإسلام، وقد جرى المفسرون على هذا، في تفسير ما ورد في هذا الاستعمال في القرآن . حتى علماء الكلام والفلاسفة الإسلاميون، والمتصوفة، فسروّا اللفظين كذلك "[3].

---

[1] مقال للدكتور عبد الله قادري الأهدل، عنوان المقال منزلة العقل عند الله وأثره في الحياة، ضمن سلسلة السباق الى العقول . http://www.saaid.net/Doat/ahdal/index8.htm

[2] الإدراك الحسّي عند ابن سينا، محمد عثمان نجاتي، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦١/ ١٩.

[3] معارج القدس ، محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، ت ٥٠٥هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٥م / ٩٣ .

ففي القرآن إذاً توجد معطيات العقل، او ما يسمى بنظرية المعرفة التي اختلف حولها فلاسفة المسلمين أنفسهم، بملاحظة أننا نجد في القرآن الكريم اعتماداً واضحاً في تحصيل المعرفة الحسّية على قوى الإحساس المباشرة .

ولننظر الى معنى تعقلون في قوله تعالى:. ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة: الآية: ٧٣. قال ابو السعود: أي " لعلكم تعقلون أي لكي تكمل عقولكم، وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها "[1].

وفي ذلك أشار الإسلام إلى ضرورة التفكير، ليس ذلك فحسب، بل ذم بشكل واضح الذين يتبعون ما جاء به آباؤهم الأولون دون تفكير بالعقل والقلب .

فقال عز من قائل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٧٠. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ سورة الصافات، الآيتان: ٦٩ – ٧٠ .

وهكذا نجد أن ديننا الحنيف كرم بني آدم بالعقل حتى يختلف عن سائر المخلوقات، والأهم من ذلك أنه اعطاه الخلافة والسيادة في الأرض .. وما ذلك إلا بالعقل الصحيح الذي يوافق القرآن الكريم .

---

[1] تفسير أبي السعود، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، ت ٩٨٢هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ب.ت / ١: ١١٤ .

فله إذاً أن يفكر في ما خلق الله سبحانه وتعالى، ويستكشف الحقائق المادية التي باستطاعته أن يعيها ويفهمها، أما الحقائق الغيبية فما كشفه الله له فهو خير، وما أخفاه الله تعالى عنه فعليه أن يوقف عقله وفكره أمامها، ذلك أنه لن يفهمها، ولن تعود عليه إلا بالإعياء التام عقليا ونفسيا، فما عليه إلا أن يؤمن بالغيب، كي تستقر حياته ويستقيم معاشه ومعاده الموعود، ولا يسأل عنها أطلاقا فليس بإمكانه فهمُها وإدراكُها .

٢.مكانة العقل في السنة النبوية

مضى سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وأصحابه يكلم الناس على قدر استعدادهم العقلي والمعرفي مبينا اهتمامه بالعقل، كما في الحديث: " أُمرنا ان نكلم الناس على قدر عقولهم "[١].

وسواء صح هذا الحديث او ضعف، فإن الغاية من ادراجه في هذا المقام أن دعوته صلى الله عليه وسلم قائمة على احترام عقول الآخرين، وعدم زجها فيما لا تعي، وهذا من باب الدعوة على قدر فهم الناس وعدم تكليفهم ما لا يطيقون.

---

[١] الفردوس بمأثور الخطاب، أبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي الهمذاني الملقب إلكيا، ت ٥٠٩ هـ، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦ هـ / ١: ٣٩٨ . وقال الزركشي: " وفي إسناده ضعف " ينظر: التذكرة في الأحاديث المشتهرة، بدر الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي، ت ٧٩٤ هـ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٦ هـ / ١: ١٠٧ .

بل إنه صلى الله عليه وسلم كان يكرر الكلام ثلاث مرات مراعيا فروقات الناس في العقول ودرجات الفهم والوعي التام . وذلك بسبب تفاوت مدارك الناس ووعيهم ومدى استفادة عقولهم من الكلام الذي سيوجه إليهم، لذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يختار الفرص المثلى لإلقاء خطبه ومواعظه على أساس

سبب الموعظة ووقتها، حتى يضمن فهم الجميع بلا استثناء .

وفي العبادة والصلاة يعلم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ان من يقف خلفه يكون من اهل العقول الراشدة، وليس من الطائشين والمراهقين .

فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: "استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم "[1].

قال الإمام الجزري رحمه الله: "أي ذَوُوا الألباب والعقول، واحدها حِلْم بالكسر وكأنه من الحلم: الأناةِ والتَّثَبُّت في الأمور وذلك من شِعار العقُلاء"[2].

---

[1] صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ / ٥: ٥٤٥ .

[2] النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، ت ٦٠٦هـ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ / ١: ١٠٣٦.

ويؤكد هذا التفسير الإمام النووي رحمه الله حيث يقول: " وأولو الأحلام هم العقلاء وقيل البالغون والنهي بضم النون العقول فعلى قول من يقول أولو الأحلام العقلاء يكون اللفظان بمعنى فلما اختلف اللفظ عطف أحدهما على الآخر تأكيدا وعلى الثاني معناه البالغون العقلاء"[1]

وما زالت السنة النبوية ترشد الناس الى العقل السليم حتى ذكرت حال الناس يوم القيامة، وتفاضلهم فيما بينهم على أساس العقل الصحيح فعن سيدتنا عَائِشَةَ قَالَتْ " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ بِأَيِّ شَيْءٍ يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا قَالَ بِالْعَقْلِ قُلْتُ فَفِي الآخِرَةِ قَالَ بِالْعَقْلِ فَقَالَتْ عَائِشَةُ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ قَالَ وَهَلْ عَمِلُوا إِلاَّ بِقَدْرِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْعَقْلِ فَبِقَدْرِ مَا أُعْطُوا مِنَ الْعَقْلِ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ بِقَدْرِ مَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ "[2]

فمن اراد ان ينجو يوم الحساب فما عليه الا استخدام عقله بشكل صحيح، لا يعصي به الله سبحانه وتعالى، ولا يخالف أوامره، ولا يتبع الهوى . أما من استخدم عقله عكس ما أراد الله سبحانه، فلا عقل له، ولا هدى . فهذا إذاً هدي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في تنمية العقل والاستفادة من التفقه في الدين، وافادة الآخرين قدر الامكان .

---

[1] شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، ت ٦٧٦هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٣٩٢هـ/ ٤: ١٥٥ .

[2] بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، الحارث بن أبي أسامة، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٣/ ٢: ٨٠٥ .

٣.مكانة العقل عند اهل العلم .

لقد كرم الله سبحانه تعالى العقل، حين جعله مناط التكليف، وفضل به الانسان على جميع الكائنات، وخص العلماء بلب العقل فقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

لذلك فأهل العلم يكنون للعقل الصحيح مكانة خاصة ويرفعون من شأنه، فينظرون في ملكوت الله تعالى، ويستحضرون التذكر والاتعاظ وصدق التوجه الى الخالق سبحانه دون ان يضعوا تعارضاً بين كلام الله تعالى وبين ما خلقه .

ثم ان المذاهب الكلامية والفلسفية، والتي أرادت تمجيد العقلَ، والرفع من شأنه،

حسب قولهم، لم يَصلِوا بحال من الأحوال إلى عشر معشار ما بلغه الإسلام

من تكريمٍ للعقلِ، وتشريفٍ له .

وليس هناك كتاب كالقرآن الكريم اطلق للعقل المجالات وفتح امامه الأبواب ليفكر ويبتكر ويتدبر خلق الله سبحانه وتعالى، وحماه من التخلف والعودة الى الوراء .

" فلم يطلب الإسلام من الإنسان ان يطفئ مصباح عقله، ويعتقد، بل دعاه إلى إعمال ذهنه وتشغيل طاقته العقلية في سبيل وصولها إلى أمور

مقنعة في شؤون حياتها، وقد وجه الإسلام هذه الطاقة بتوجيهات عدة لتصل إلى ذلك، فوجهها إلى التفكر والتدبر في كتاب الله، وفي مخلوقاته، وفي تشريعاته وفي أحوال الأمم الماضية، وما أدت بهم المعاصي إليه، وفي الدنيا ونعيمها الزائل"[1].

ولقد تأمل العلماء قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾سورة الأنفال، الآية: **٢٥** .

فقال السيوطي: "هي أن يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل"[2].

وهكذا يتحمل الإنسان وبالأخص العلماء المسؤولية الكاملة في التفكير وإعمال العقل من اجل إقامة المعروف والنهي عن المنكر، وما هذه الآية الكريمة الا تهديدا بالعقاب اذا علم ولم يعمل، ولم يصلح، ولو كان فيهم الصالحون .

---

[1] منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد الرومي، مطبعة رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد، السعودية، ط**٢**، **١٤٠٣**هـ / **٣٣** .

[2] الدر المنثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، ت **٩١١**هـ، دار الفكر، بيروت، ط**١**، **١٩٩٣** م / ٤: ٤٧ .

بدليل ما أخرجه البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: "يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"[1].

وقد أدى العلماء دورهم الريادي في تعاطي العقل، وتفعيل دوره في شتى المجالات .

ومن مظاهر تكريم الإسلام للعقل رفضه للتقليد الأعمى الذي يؤدي إلى تجميد الأذهان، ليس هذا فحسب وإنما حذر من التعصب إلى أفكار وضعية زائفة أساسها الهوى والخرافة والسذاجة، فأمر العقل بالتعلم وحثه على ذلك كي ينمو بغذاء العلم وبهذه الطريقة يكون الإيمان عن ادراك صحيح وفهم عميق، واقتناع أتم بل أنه سبحانه قرن ذكر أولي العلم بذكره عز وجل وذكر ملائكته " شهد الله " وقوله تعالى "انما يخشى الله من عباده العلماء " وهكذا كان عقل أهل العلم وسيلة لهداية الخلق الى الطريق القويم، وليس لخداعهم وشراء ذممهم وإفساد عقائدهم كما حصل في المذاهب الغربية الباطلة، والديانات المحرفة .

---

[1] صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ت ٢٥٦، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ / ٦: ٢٦٠٩ برقم ٦٧١٦ . ينظر: صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ت ٢٦١هـ، دار الجيل، بيروت، طبعة مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في استانبول، ١٣٣٤هـ / ٨: ١٦٥ . برقم ٧٤١٦.

" لذا لم يعرف الإسلام رجل الدين الذي يحتكر علومه ويعطي صكوك الغفران ويملك التحليل والتحريم ولكنه يعرف فكرة عالم الدين الذي يرجع اليه لمعرفة حكم الله فيما اشتبه على الناس من أمور دينهم مستندا إلى دليل معتبر شرعاً من غير الزام إلا بحجة قطعية من الكتاب أو السنة أو إجماع مسلم به "[1].

وللعقل أن يتدبر ويفكر ويفهم، ويستفهم عن أحوال الأمم السابقة، وما هي أسباب هلاكهم والاتعاظ بما حل بهم، والتدبر في الدنيا ونعيمها.

وبذلك جعل العلماء للعقل آلية صحيحة، جعلت العقل يفكر في التشريعات الإلهية من اجل أن يصل إلى الحكمة المنشودة من كل علم وعمل .

[1] منهج المدرسة العقلية / ٣٦ .

العقل عند أئمة أهل البيت (عليهم السلام):

وهم أول من اعتنى بالعقل وعدّوا العقل هو المبدأ لكل حجة ودليل واليه تنتهي طرق العلم والمعرفة بكل شيء وكل حكم، والعقل هو القوة المبدعة التي منحها الله (عز وجل) إلى الإنسان وميزه به على الحيوان، والعاقل في اصطلاح القرآن الكريم وعند أهل العلم هو الذي يضع الشيء في مكانه ويملك إرادة قوية، فيحبس نفسه عما يشين بها ولا يستجيب لهواها ان يك مخالفاً للعقل وحكمه، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ سورة المؤمنون: ٧١. وسئل الإمام الصادق (عليه السلام)، عن العقل، فقال: ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان، وقال (عليه السلام)العقل لا يقود الى الحرام كما يفعل الشيطان، والله تعالى بشّر اهل العقل والفهم في كتابه الكريم، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ الزمر: الآية ١٧.

وهناك رسالة للإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، في مجال العقل كمصدر معرفي سميت برسالة العقل عند الإمام وهي وصية ثمينة أوصى بها هشام بن الحكم، تؤكد أهمية العقل في الاستدلال للنجاة من عذاب النار[1].

[1] معنى العقل عند أهل البيت (عليه السلام)، تقوى القلوب/ الشبكة العنكبوتية.

المبحث الثاني: مرجعية الفكر الاسلامي وخصائه

المطلب الاول: مرجعية الفكر الإسلامي

أولاً: القرآن الكريم .

يظهر جلياً أن الفكر الإسلامي اعتمد القرآن الكريم مصدرا رسميا استنبط منه طرق الفهم الصحيح، واعتمده دون مناقشة، حيث أن القرآن الكريم دستور إلهي غير قابل لوضعه في دائرة التجارب والاحتمالات .

ولو تأملنا القرآن الكريم لوجدناه يفتح المجال الواسع لحركة العقل الإنساني، ويظهر لنا هذا واضحاً عندما نجد أنه لا يقدّم نصوصاً قاطعةً في كثير من المسائل، بل تأتي تلك النصوص مرنة أو عامة أو ذات مقاصد كليّة.

يقول سامي النشار: "إن البحث المنصف إذا تحرى عن حقائق الحياة الإسلامية خلال التاريخ الطويل، يرى أن مظاهر الفكر الإسلامي المتنوعة كلها انطلقت من الإسلام وجالت في دائرته واصطبغت بصبغته، وأن القضايا الكلية والجزئية التي أثيرت في التاريخ الإسلامي كانت بأصالة مصدريه الأساسيين"[1]

---

[1] نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، دار المعارف، ط٩، ١٩٩٥م./١: ٣٣-٣٤ .

ثانياً: السنة النبوية المطهرة .

لاشك أن السنة النبوية المشرفة ممثلة بأقوال وأفعال وأحوال سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فصلت كل ما يحتاجه المسلمون من قضايا اجتماعية ودينية وفكرية، ثم بات فهمها سائغاً للعقول عن طريق علماء الأمة الكبار الذين نقلوا لنا هذا الدين ابتداءا من آل البيت الأطهار عليهم السلام، والصحابة الكرام رضوان الله عليهم، لتتكون صورة الفكر الإسلامي الرائع، الذي منح الإنسانية الجمال، ورسم خطوط الاعتدال والرقي في الفكر والتفكير، وربط جميع المعتقدات عن طريق الحوار البناء، ونشر ثقافة المحبة والتسامح بين الناس أجمعين، وما وصف الفكر الإسلامي بأنه إسلامي إلا لأنه انطلاق من هذين المصدرين الإلهيين. القرآن والسنة.

ثالثاً: العقل هو ثمرة التزام الفكر الاسلامي بمصدريه الرئيسين

إن التزام الفكر الإسلامي بالقرآن الكريم كوحي إلهي ثابت فتح مجال الإبداع أمام العقل ضمن الضوابط الشرعية .

حيث قام على مدار التاريخ ببناء القضايا الكونية والاجتماعية التي أثارها هذان المصدران المعصومان على أساس المرتكزات العقلية التفصيلية والاستنباط منها والتوسع فيها وشرح وجوهها المتنوعة وإثبات أن النص القاطع الوارد في كلا المصدرين موافق للعقل الصحيح . وهو

العقل المعتبر السليم الذي لا يتناقض مع الأسس الشرعية للمرجعية النصية.

ففي مجال العقائد الدينية استخدم الفكر الإسلامي أساليبه العقلية لحل المشكلات الفكرية عن طريق فك البراهين اليقينية القرآنية، ومن ثم الحصول على نتائجها العقلية الصحيحة .

فضلاً عن استخدام القوانين المنطقية من اجل مكافحة الأفكار المبنية على مخالفة العقيدة الإسلامية، حيث لم تغب عن العقل الإسلامي محاولات المخالفين للإيمان رغم مجيئها بفلسفات أجنبية كادت ان تسحب البساط من تحته وخصوصا من أفكار فلسفية والحادية دخلت على البيئة الإسلامية بعد القرن الثاني الهجري .

وأما في مجال التشريع العملي فقد استطاع الفكر الإسلامي منطلقا من مبادئ وقواعد الشريعة الإسلامية أن يواجه أحداث الحياة المتغيرة، فيضع لها من الأنظمة التفصيلية والأحكام الاجتهادية الكثيرة والحلول الناجعة المبدعة التي أقامت الحياة الحضارية الإسلامية في تفاصيلها الدقيقة، فأنتجت بذلك رقيا شاملا في المجتمع الإسلامي أدى إلى رفع مستوى الإنسان المسلم المادي والمعنوي..

المطلب الثاني: خصائص الفكر الاسلامي

مدخل:

عند تعريف الفكر الإسلامي استقرائياً نعلم بأنه: كل ما أنتجه العقل المسلم من مفاهيم مرتبطة بعملية التحليل والاستدلال من المرجعية الثابتة للمسلمين (الكتاب والسنة)، في المعارف الكونية التي تتصل بالكون وخالقه والمجتمع والإنسان ومحاولة ذلك العقل نقل الوحي من حالة الكمون والسكون الى الحركة والتغيير والبناء[1]، وصدر هذا الفكر من العلماء والدارسين في فروع العلوم الإسلامية، وبناء على هذا التعريف يدخل في مجال الفكر الإسلامي كل العلوم الإسلامية ابتداء من التفسير وعلوم الحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والعقائد والدراسات اللغوية التي تخدم وترتبط بالمصادر الإسلامية المعرفية.

ومع هذا الشمول للفكر الإسلامي إلا ان الاصطلاح استقر على ارتباط علم الكلام والعقائد وما تعلق بهما بالفكر الإسلامي، وأصبح مصطلح الفكر الإسلامي يرتبط بالدراسات التي تعنى بالعقيدة والدفاع عنها، ودراسة الأديان والفلسفة وعلم الكلام والدراسات القرآنية المتخصصة بالمصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالحركة الفكرية، وكذلك ارتبط بالفكر الإسلامي دراسات الفرق والمدارس الكلامية والملل

---

[1] ينظر: قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر، د. محسن عبد الحميد، ط١، ٢٠٠١م، بغداد.

والنحل والتاريخ الذي يؤرخ لنشوء الأفكار والفرق والمذاهب، ويرتبط بالفكر الإسلامي كذلك تطور العلوم والدراسات المعاصرة والمفاهيم والأفكار السائدة في العصر الحديث وما تثيره من تحديات ومشكلات فكرية تواجه المفاهيم الدينية والإسلام على الخصوص، وعلى هذا الأساس بالإمكان تقسيم الفكر الإسلامي على مرحلتين عن طريق متابعة تاريخ تطور الفكر الإسلامي واستقرار المصطلحات وتداول العلماء المسلمين لها.

المرحلة الأولى: الفكر الإسلامي الكلامي، ويشمل مرحلة التأسيس للمفاهيم والأفكار المرتبطة بالعقيدة وعلم الكلام، ونشأة الفرق والمدارس الكلامية.

المرحلة الثانية: الفكر الإسلامي المعاصر وهو الفكر الإسلامي ما بعد الكلامي إلى الوقت الحاضر، ويشمل التحديات المعاصرة التي واجهت الفكر الإسلامي، وردود العلماء المسلمين عليها، مثل الإسلام السياسي والعلمانية والحداثة والداروينية وغيرها.

ولكل مرحلة من المراحل أعلاه شخصيات ظهرت ولمع أسمها في مجال الفكر سواء العلوم الشرعية الإسلامية أم العلوم الفلسفية والطبيعية، وأصبحت دراسة هذه الشخصيات سيرها وآثارها تدخل في مجال الفكر الإسلامي ودراسته.

خصائص الفكر الإسلامي: بناء على التعريف بالإمكان التعرف على أهم خصائص الفكر الإسلامي وهي:

١. فهو فكر يرتبط باصالته الشرعية، فكر يستمد مبررات حركته وشرعيته من إثبات الحقائق الإيمانية والدفاع عنها، فهو فكر يرتبط بالإيمان بالله تعالى واتباع الرسول ﷺ، وبناء على ذلك فالفكر الإسلامي هويته إيمانية توحيدية، وتحقق هذه الغاية والمقصد الأسمى عن طريق اتباع الرسول ﷺ في إقرار العقائد والتعامل مع المخالفين وعن طريق النظر العقلي الذي لا يتعارض مع الدليل النقلي، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على إعمال العقل للوصول إلى الإيمان بالله ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1]، وفيها قال ﷺ :"ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر بها"[2]، (وهناك أكثر من **٩٠**٪ من آيات القرآن الكريم تدعو إلى التفكر وتوظيف النظر للوصول إلى الإيمان بالله تعالى، فالكون هو الكتاب المنظور، والقرآن هو الكتاب

---

[1] سورة آل عمران: الآيتان (**١٩٠. ١٩١**) .

[2] البخاري ومسلم: **١/ ٥٣٠** بمعناها، وينظر: فتح الباري: **٨/ ٢٣٧** .

المقروء)[1]، ووظيفة المفكر المسلم أن يربط بين قراءتين قراءة الخبر في القرآن الكريم، وقراءة نتائج النظر في المختبر الكون، ومنهج القرآن الكريم أن يربط بين الآيات الكونية، وهي آيات التكوين وبين الآيات التكليفية التي نزلت في القرآن الكريم ليتحمل المتلقي مسؤولية التكليف وفي أكثر من آية نجد هذا الربط منها قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾[2].

٢ـ الفكر الإسلامي فكر بشري فهو قابل للخطأ وليس معصوماً وهو قابل للتغيير بناء على تطور العلوم وانكشاف الحقائق، وكذلك قابل للتعديل بما يناسب ما استجد من علوم، وكما هو معلوم بأن بشرية الفكر الإسلامي تؤدي إلى نسبية الحقائق التي يتبناها هذا الفكر وإن الإدعاء بأن مذهباً معيناً يمتلك الحقائق المطلقة أو ان عالماً معيناً معصوم من الخطأ يعبر عن جهل بحقيقة الدين وتداخل بين المقدس الإلهي وغير المقدس البشري، وبناء على ذلك تحدث الكثير من الخلافات التي تؤدي إلى استنزاف الطاقات والجهود بسبب هذا التداخل الذي يقود إلى دعاوى امتلاك الصواب المطلق أو ما يسمى بالأرثوذكسية الدينية التي ظهرت في

---

[1] ينظر: حول النظام المعرفي في القرآن الكريم، د. محمود عايد الرشدان، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الثانية، العدد (١٠)/ ١٩٩٧م .

[2] سورة الغاشية: الآيات (١٧ـ ٢١) .

الأديان السابقة اليهودية والنصرانية، ثم ظهرت في البيئة الإسلامية وهي حالة سلبية تؤدي إلى تمحور حول أفكار مركزية لا تقبل الحوار وتقصي الآخر وتستبيح دمه وتلغي إنسانيته، وتاريخ الفكر يؤكد لنا ان هذه السمة وهي الاختلاف كانت ملازمة للفكر البشري، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[1]، فالخلاف حقيقة قائمة بين البشر لاختلاف عقولهم وامزجتهم وقدراتهم الفكرية والوظيفة الأساسية للفكر الإسلامي هي البحث عن المشتركات، والاعتراف بالآخر والتعايش معه من أجل بناء حضاري قائم على التعددية والاختلاف مع الاحتفاظ بالقيمة الإنسانية والتسامح، وإن بقاء النصارى واليهود وأهل الأديان الأخرى في بلاد المسلمين دليل على إجماع علماء الإسلام على قبول التعايش بين الأديان المختلفة وحرية اختيار الدين، ورفض الإكراه، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[2].

٣. الفكر الإسلامي فكر مرن: فهو يستمد مرونته من كفاية القرآن الكريم والسنة المطهرة لتوليد معاني ومفاهيم تواكب متغيرات الحياة وتطوراتها، فلا يضيق هذا الفكر بالمستجدات ولا يجمد على قوالب فكرية

---

[1] سورة هود: الآيتان (١١٨-١١٩).

[2] سورة البقرة: من الآية (٢٥٦).

عفى عليها الزمن، وبناء على ذلك فإن مجال الفكر الإسلامي الربط بين الأصالة ومرجعية المسلمين وثوابت الدين وبين المعاصرة، كما يذكر مالك بن نبي بأن هناك (أفكار ميتة وأفكار قاتلة) الأفكار الميتة قالها أشخاص قبل مئات السنين وماتوا فلم تعد تنفع الواقع، لأن مشكلات الواقع تتبدل، فإن المسائل التي واجهت علماء الكلام في مرحلة التأسيس لم تعد قائمة في العصر الحالي، واستجدت مسائل معاصرة مثل المذاهب المادية والفلسفة الوضعية والاتجاهات الفكرية المعاصرة التي تناقش مسائل الوجود والعدم والزمان والمكان والروح والمادة، ولم تعد مسائل علاقة الأسماء والصفات بالذات وقضايا الرؤية وخلق الأفعال من مسائل الفكر المعاصر ومع ان هذه الأفكار لم تعد تعبر عن حاجة المجتمع المعاصر، لكن على الباحث في الفكر الإسلامي أن يدرسها ويستوعبها لأنها تزيد من رصيده العلمي وثقافته الإسلامية وتمكنه من معرفة نشوء الأفكار وتأصيل الفكر والمعاصرة تفرض على المفكر المعاصر أن يتداول المفاهيم التي تصدر من مفكري عصره، ويرد عليها أو يوظف العلوم المعاصرة مثل الفيزياء والكيمياء وعلوم الحياة وغيرها من العلوم المعاصرة، كل هذه العلوم يوظفها لنصرة الحقائق الدينية عن طريق الربط بين العلوم المعاصرة ودلالات النصوص الدينية لتعزيز الإيمان بالله والدين، وإن خطاب العصر يحتاجه المفكر المسلم للتواصل مع الواقع

وبيان حقائق الدين بلغة العصر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[1].

أما الأفكار القاتلة فهي الأفكار التي تنبت في بيئة غير إسلامية، وتصدر ضمن مشكلات غير إسلامية ويُعمل على استنساخ هذه الأفكار وتستورد هذه الأفكار، لتعمل في البيئة الإسلامية فتكون النتائج سلبية وتولد صراعاً في الفكر الإسلامي يستنزف طاقات علماء المسلمين، فالديمقراطية والقومية والعلمانية أفكار أنتجها الغرب لمعالجة مشاكله لا يمكن أن تعمل في البيئة الإسلامية ما لم يعاد تكييفها مع الأصول الإسلامية.

٤. الفكر الإسلامي ارتبط بظروف إنتاجه: ولما كان هذا الفكر يستمد شرعيته من المرجعية الإسلامية (الكتاب والسنة) فقد كانت ظروف إنتاجه دافعاً لعلماء المسلمين إلى البحث والاستدلال في النصوص لإعطاء التصورات والمفاهيم التي تأثرت بالثقافة السائدة، ويتم تكييف الدلالة بموجب الثقافة السائدة مع التشبث بالنص ودلالته، فالمعتزلة عندما أنكروا الكثير من المسائل؛ لأنها بحسب منهجهم تتعارض مع العقل والمنطق، وإن إقرارها يؤدي إلى القول بأن الخالق يشبه المخلوقين فأنكروا رؤية الله يوم القيامة وأولوا النصوص التي تثبت الرؤية على انها

[1] سورة إبراهيم: من الآية (٤).

رؤية قلبية وليست بالعين المجردة؛ لأن الرؤية بالعين توجب أن يكون المرئي في جهة وجسماً، وهذا محال على الله.

وأجاب الأشاعرة بأن مصحح الرؤية الوجود وليس الجسمية كما تدعون والأصل ان كل شيء موجود ممكن أن يرى، وان قدرة الله قد تمكن من رؤية الروائح والخيالات العقلية مثل جبل من ذهب، وإن الله تعالى يخلق في الإنسان القدرة على رؤيته يوم القيامة؛ لأن الله موجود فليست الجسمية ولا الحدوث ولا الإمكان هي مصححات للرؤية لأن الجسم حادث والحادث مسبوق بعدم والإمكان مسلوب الضرورة من أحد طرفيه؛ لأن الممكن عندما يكون ممكناً لم يكن وجوده ضرورياً أو واجباً ولا عدمه ضروري أيضاً، وكذلك خلاف المتكلمين حول حقيقة الكلام، فمنهم قال بأن كلام الله حادث، ومنهم قال انه قديم، ومنهم من فصل بالقول في الكلام النفسي قديم والكلام المقروء في القرآن الكريم حادث وغيرها من الآراء التي صدرت من العلماء بسبب شبهات كانت قائمة في عصرهم وما آثاره أهل الأديان من شبهات حول تعدد القدماء وما ذكره يوحنا الدمشقي في أحد كتبه من شبهة يعلم بها النصارى لمجادلة المسلمين (إذا قال لك المسلم ما تقول في المسيح فقل له: إنه كلمة الله ثم اسأل المسلم: بماذا سمى القرآن المسيح، سيجيب المسلم: (كلمة الله

ألقاها إلى مريم وروح منه، فان أجاب بذلك اسأله: هل كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة، فإن قال مخلوقة فهي كفر عندهم)[1].

٥. الفكر الإسلامي فكر تكاملي وليس فكراً تفاضلياً: والفكر التكاملي يؤكد على أن نسبية الحقائق المكتسبة عند العقل الإنساني صفة مرتبطة بقصور العقل البشري عن إدراك الحقائق المطلقة، ولذلك ورد في الأثر (العجز عن درك الإدراك ادراك)[2]، وهذا تقرير دقيق لطبيعة العقل البشري بأنه عقل محدود وعاجز عن ادراك المطلق، ويترتب على هذا التقرير ان الصواب في الفكر البشري مرتبط بصدوره عن عقل جماعي، وكلما زاد اتفاق عدد من الباحثين على مفهوم معين أبعده هذا الاتفاق عن الخطأ، وكلما كان الفكر أحادياً كان أقرب إلى الخطأ، وهذه الحالة تؤدي إلى تفعيل العقل المؤسسي الذي يحقق استيعاباً شاملاً للمفاهيم التي تخضع للدرس، وكلما زادت التخصصات الدقيقة كلما كانت النتائج أكثر دقة، وهذا المبدأ يرتبط مع فكرة الإجماع التي يقررها علماء أصول الفقه على أساس ان الإجماع إذا تحقق اكتسب الحكم درجة تقترب من النص عند بعض المذاهب، والفكر التكاملي يحقق جوانب عدة منها التي ذكرناها ومنها كذلك انه ينمي روح التعاون والتواضع في البحث العلمي في حين ان الفكر التفاضلي يعمق روح الاستعلاء والتنافس السلبي، وبالتالي تزداد

---

[1] ينظر: في علم الكلام، د. أحمد محمود صبحي، جزء المعتزلة: ص٣١ .

[2] ورد هذا الأثر عن أبي بكر (رضي الله عنه)، وقيل عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) .

احتمالات الخطأ في النتائج والقرارات، وكان أول من مارس الفكر التفاضلي هو إبليس عليه لعنة الله عندما ذكر القرآن الكريم مقولته المعروفة: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾[1]، وكذلك مارسه فرعون في مقولة: ﴿ أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[2].

٦ـ الفكر الإسلامي فكر علمي: يدعو إلى استعمال العقل ويربط بين الأسباب والمسببات ويرفض التسليم إلى الأساطير والطوباويات والشعوذة والخرافة، ويخضع في حركته إلى الجمع بين العلم والإيمان، ويطالب على الدليل والبرهان ويفحص ويحلل وينقد ويمارس التحليل الرياضي، والنظر في الأسباب والمسببات ولا يستسلم أمام التفسيرات الغيبية مالم ترتبط بالنصوص القطعية والأدلة الشرعية والتي ترتبط بحقائق الدين ومبادئه، وعلى هذا الأساس لا يمكن اعتماد الرؤى والمنامات في معرفة الأحكام الشرعية ولكن يمكن الاستئناس بها إذا توافرت فيها الشروط الموضوعية والتحقق من مصداقيتها.

أما الكشف والإلهام فأكثر أهل العلم لا يعولون عليها لمعرفة الحقائق، وأكثر من يتعامل بالكشف والإلهام هم أهل العرفان والتصوف والتجربة الصوفية تجربة روحية خاصة لا يمكن تعميمها أو نقلها إلى

---

[1] سورة الأعراف: من الآية (١٢).

[2] سورة الزخرف: الآية (٥٢).

الآخرين؛ لأنها ترتبط بالذوق كما يذكر محمد إقبال في كتابه تجديد التفكير الديني.

ويتلخص المنهج العلمي للبحث عند علماء المسلمين في قاعدة جليلة كبرى لم يعرف مثلها عند غيرهم وهي قولهم: إن كنت ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل)[1]، بمعنى ان الأخبار المعتمدة في تثبيت الحقائق هي الأخبار المسندة والموثقة بصحة السند، أما المفاهيم والأفكار المعتمدة لابد أن تدعم بالأدلة والبراهين، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2]، وذم القرآن الكريم أتباع الأهواء والظن، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[4].

---

[1] البوطي، د. محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية: ص٣١ .

[2] سورة البقرة: من الآية (١١١) .

[3] سورة الإسراء: الآية (٣٦) .

[4] سورة يونس: الآية (٣٦) .

الفصل الثاني
تأصيل الاختلاف في الفكر الإسلامي
والعوامل المؤثرة
في صياغة الفكر الإسلامي

الفصل الثاني

تأصيل الاختلاف في الفكر الإسلامي والعوامل المؤثرة في صياغة الفكر الإسلامي

المبحث الاول: الخلاف وأثره في صياغة الفكر الاسلامي .

لا بد أن يعلم دارس الفكر أن الاختلاف سمة عامة عند البشر لاختلاف العقول في طبيعتها وقد ساعدت عدة عوامل عقلية على صياغة الفكر الإسلامي أدت إلى تطوره ووصوله إلى الحُلة التي تزيَّن بها الآن حيث كان لنشوء المدارس العقلية الأثر الكبير في بلورت الأفكار الإسلامية وبلوغها المجد الفكري والحضاري، ولولا الخلاف الفكري لتوقف تطور الفكر الإسلامي وتحجر.

ومن هنا كان من المهم ان نذكر تلك المدارس العقلية بكل حيادية لنفهم سبب نشوئها والنتائج التي توصلت اليها، وهذه المدارس عبرت تعبيراً دقيقاً لخاصية الفكر الإسلامي البشري لذلك كانت الأحداث التي أدت إلى ظهور المدارس الإسلامية وحركت الفكر وهي نتيجة حتمية لفهم النصوص ودلالتها، وعلى هذا الأساس ترددت مقولة أمير المؤمنين (عليه السلام) المشهورة: بأن القرآن لا ينطق بين دفتي المصحف وإنما تنطقه الرجال)[1]، وهو بذلك يقرر بأن دلالة النصوص ليست هي

[1] من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) في الخوارج لما انكروا تحكيم الرجال قال لهم: إنّا لم نحكم الرجال وإنما حكّمنا القرآن، هذا القرآن إنما هو خط مسطور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولابد له من ترجمان) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٨: ص١٠٤ .

النصوص نفسها، وبناء على ذلك يتقرر بأن الخلاف حاصل ولا يمكن تجاوزه حتى بين الفرقة الواحدة أو العائلة الواحدة؛ لأن أفهام البشر تتفاوت من إنسان إلى آخر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[1]، وهكذا يقرر القرآن بأن الخلاف أمر طبيعي وان تطابق العقول من المحال وعلى العقلاء التعايش والتعاون فيما اتفق عليه، والاعتذار عما اختلف فيه، أما استخدام العنف والقوة لفرض الآراء كما فعلت الخوارج فهو الأمر الذي يجب الابتعاد عنه، وكل ما يصدر عن الخلاف من تعصب وكراهية وتبرير للعنف واستباحة الآخر فهو من الخلاف المذموم والمحرم.

وفي تاريخ الفكر الإسلامي ظهرت حركات سياسية وعقدية أثرت في مسار الفكر، وصياغته وتشكلت هذه الفرق والمدارس الفكرية والعقدية بسبب خلاف في الفهم للنصوص الدينية، ولكن لابد من التأكيد على أن جميع هذه الفرق مع الخلافات تبقى ضمن دائرة الإسلام أو أمة الإسلام، لأنها اختلفت في فهم وتفسير الدلالة للنصوص أو المقاصد ولم تفكر مما يعلم بالدين من الضرورة مثل الإيمان بالله أو النبوة أو المعاد.

نتحدث فيما يأتي عن أهم هذه الحركات:

---

[1] سورة هود: من الآية (١١٨).

المطلب الأول: الخوارج.

أولاً: التعريف بالخوارج .

هم مجموعة من البغاة، خرجوا من غير وجه حق، خرجوا على سيدنا الإمام علي عليه السلام، الذي كان على الحق، ومن خالفه هلك وضل وأضل .

قال الشهرستاني: "كل من خرج عن الإمام الحق، الذي اتفقت الجماعة عليه، يسمى خارجيا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان" [1]

ادعى دعوى باطلة ظالمة مفادها انهم يريدون إقامة الدين، وأنهم خرجوا من اجل إقامة الدين، ولم يأبهوا بما حدث من الانقسام الذي مزق وحدة المسلمين، وجرهم إلى سفك دماء المخالفين، ومع ذلك جاهروا بدعوتهم الظالمة مدعين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي نفس الوقت استخدموا سلاح الإرهاب الفكري من قتل وترويع وتكفير مخالفيهم من المسلمين حتى صارت سمتهم الرئيسية القتل وسفك الدماء.

---

[1] الملل والنحل، محمد عبد الكريم الشهرستاني أبو الفتح، تحقيق: احمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٣هـ. /١: ١١٣ .

ثانياً: أصل نشأة الخوارج .

بداية نشأة الخوارج يعود الى زمن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وذلك عندما طعن عبد الله ذو الخويصرة التميمي، بقسمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إذ قال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، وفي رواية قال: " اعدل يا رسول الله فقال له ويلك إن لم اعدل فمن يعدل "[1]

وفيهم قال عليه الصلاة والسلام: " إن مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ القرآن لاَ يُجاوزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإسلام مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإسلام، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأوثَان، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ" [2]

"فهذا أول خارجي خرج في الإسلام، وآفته أنه رضي برأي نفسه، ولو وقف لعلم أنه لا رأي فوق رأي رسول الله _ صلى الله عليه وسلم . وأتباع هذا الرجل، هم الذين قاتلوا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه "[3].

---

[1] صحيح البخاري /٣:١١٢ برقم ٢٥٠٥.

[2] صحيح البخاري /٣:١٢١٩ برقم ٣١٦٦، ومسلم /٣: ١١٠ برقم ٢٤٩٩.

[3] تلبيس إبليس، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، ت ٥٩٧هـ، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ ./٨٢ .

ثالثاً: فرقهم وأسماؤهم وسبب تسميتهم بتلك الأسماء.

اختلفت الخوارج حتى صارت عشرين فرقة " وهذه أسماؤها المحكمة الأولى، والأزارقة ثم النجدات، ثم الصفرية، ثم العجاردة، وقد افترقت العجاردة، فيما بينها فرقا كثيرة منها الخازمية، والشعيبية، والمعلومية، والمجهولية، والمعبدية، والرشيدية، والمكرمية والحمزية، والإبراهيمية، والواقفة، وافترقت الإباضية، منها فرقا حفصية، وحارثية ويزيدية، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها، واليزيدية منهم أتباع ابن يزيد بن أنيس ليست من فرق الإسلام، لقولها بأن شريعة الإسلام تنسخ في آخر الزمان، بنبي يبعث من العجم، وكذلك في جملة العجاردة، فرقة يقال لها الميمونة، ليست من فرق الإسلام؛ لأنها أباحت نكاح بنات البنات، وبنات البنين، كما أباحته المجوس "[1].

وكبار فرق الخوارج ستة: " الأزارقة والنجدات والعجاردة والثعلبة والإباضية والصفرية والباقون فروعهم "[2].

" وللخوارج ألقاب، فمن ألقابهم الوصف لهم بأنهم خوارج، ومن ألقابهم الشراة والحرورية، ومن ألقابهم المارقة، ومن ألقابهم المحكمة، وهم

---

[1] الملل والنحل / ١: ١١٣ .

[2] الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور، ت٤٢٩هـ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ط٢، ١٩٧٧. / ١: ١٨ .

يرضون بهذه الألقاب كلها، إلا بالمارقة، فأنهم ينكرون أن يكونوا مارقة من الدين كما يمرق السهم من الرمية، والسبب الذي له سموا خوارج، خروجهم على سيدنا علي رضي الله تعالى عنه . والذي له سموا محكمة، إنكارهم الحكمين، وقولهم: لا حكم إلا لله، والذي سموا له حرورية، نزولهم بحروراء في أول أمرهم، والذي له سموا شراة قولهم: شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة "[1].

رابعاً: عقائد الخوارج .

" لم يكن للخوارج دورٌ كبير في المسائل الكلامية والجانب النظري، وذلك لأن نشأة الخوارج كانت نتيجة للأحداث السياسية، فتوجهوا إلى المقاومة، والحروب، والثورة على السلطة القائمة، والمعارك التي قامت بينهم وبين مخالفيهم، لذا قل عندهم الجانب النظري، مما جعل دورهم في المسائل الكلامية قليلا، وإن هذه المسائل رغم قلتها، إلا إنها تمثل أهم المباحث الكلامية، كمعرفة الله سبحانه وتعالى ورسله وشرعه وقد جعلت

[1] مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، ت ٣٢٤هـ، عنى بتصحيحه : هلموت ريتر، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن، ألمانيا ، ط٣، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م . /١: ١٢٧ -١٢٨.

فرقة النجدات منهم معرفة هذه الأمور أمراً واجباً وضرورياً ولا يعذر فيه أحد وغير ذلك من المسائل العقائدية الأخرى."[1].

وكانت حركة الخوارج عاملاً مهما في ظهور الخلاف حول مرتكب الكبيرة وبالتالي ظهور الفرق وأساليب الخوارج في التعامل مع قضايا الفكر والعقيدة عادة ما تأخذ مسار الصدام والصراع والمواجهة وكانوا ضيقي الفكر ولا يلجأون إلى الحوار وإنما إلى القتال فخاضوا في سبيل فكرهم المعارك الدامية وأسسوا لمنهج العنف وثقافة السيف في الفكر الإسلامي، والفكر الخارجي يعاد إنتاجه إذا ضعف العلم والإيمان وساد الجهل والتعصب.

[1]مقالات الإسلاميين، أبو الحسن الأشعري / ١: ٩٠ .

المطلب الثاني: المعتزلة .

أولاً: التعريف بالمعتزلة .

أُطلِقَ اسم المعتزلة على فرقة ظهرت في الإسلام في القرن الثاني الهجري ما بين سنة هـ١٠٥ وسنة ١١٠هـ، بزعامة رجل يسمي واصل بن عطاء الغزال .

ثانياً: نشأتهم .

" نشأت هذه الطائفة متأثرة بشتى الاتجاهات الموجودة في ذلك العصر، وقد أصبحت المعتزلة فرقة كبيرة تفرعت عن الجهمية في معظم الآراء، ثم انتشرت في أكثر بلدان المسلمين انتشاراً واسعاً "[١]

كان أول ظهورهم رداً على مسائل في العقيدة أيام الحسن البصري رحمه الله .

حيث جرى: خلاف واصل بن عطاء الغزال في القدر وفي القول بالمنزلة بين المنزلتين فيما أحدثه من البدعة فطردهم الأمام الحسن البصري. رحمه الله تعالى. من مجلسه فاعتزلوه بأتباعهم جانبا من المسجد، فسموا معتزلة لاعتزالهم مجالس المسلمين وبعقائدهم الفاسدة التي يعتقدونها[٢].

---

[١] فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، غالب بن علي العواجي، المكتبة العصرية الذهبية ؛ ط١، ١٤٢٢ – ٢٠٠١ . /٣:١١٦٣ .

[٢] ينظر: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، أبو المظفر الأسفراييني، تحقيق: كمال الحوت، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٣م ./١: ٢١ .

ومن أسمائهم التي اشتهروا بها "أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية، والعدلية، وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركا، وقالوا: لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى" [1].

ثالثاً: فرق المعتزلة

ذكر أبو طاهر البغدادي فرق المعتزلة في كتابه الفرق بين الفرق قائلاً: " إن الْمُعْتَزلَة افْتَرَقت فِيمَا بَينهَا إلى اثنين وعشْرين فرقة كل فرقة مِنْهَا تكفر سائرها وَهن الواصلية والعمرية والهذيلية، والنظامية والاسوارية والمعمرية، والإسكافية والجعفرية والبشرية، والمراوية والهاشمية والتمامية والجاحظية، والحايطية، والحمارية والخياطية، وأصحاب صَالح قبَّة، والمويسية والشحامية والكعبية، والجبائية والبهشمية المنسوبة إلى أَبى هَاشم بن الحبالى فَهَذِهِ ثِنْتَانِ وَعِشْرُونَ " [2]

رابعاً: دور المعتزلة في صياغة الفكر الاسلامي .

برغم تزمت المعتزلة العقلي، فقد ظهر دورهم واضحاً في الدفاع عن عقائد الدين أمام غزو الفلسفة اليونانية والأفكار الإغريقية، لذلك

---

[1] الملل والنحل، الشهرستاني / ١: ٤٣ .

[2] الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية / ٩٣ .

نجدهم وقفوا أمام هؤلاء الغزاة موقفاً عقلانياً لنصر الدين وقمع الأفكار الشاذة .

و" على الرغم من المواجهة فقد أدت دورها، وحطمت آراء وأفكار متفلسفة، تلك الديانات والفلسفات، واستطاعت أن تنقذ العقائد الإسلامية من الهدم والانحرافات، إلا أنها لم تستطع أن تتفادى ردود الفعل في حومة الصراع الفكري العنيف، فوقعت في أخطاء منهجية، وموضوعية، وأسلوبية "[1].

ومن الأخطاء التي وقع فيها المعتزلة وكان سبب تقهقرها بعدما دامت لهم السيادة أكثر من قرن هي:

١. " غلو المعتزلة وإسرافهم في الاستدلال العقلي.

٢. اتخاذهم السلطة وسيلة لفرض آراءهم الدينية ووجهات نظرهم الفكري.

٣. لجوؤهم إلى الاضطهاد لمخالفيهم في المعتقد وخصوصا أهل السنة"[2].

---

[1] الفكر الإسلامي وتجديده / ٢٤.

[2] أصول الدين الإسلامي / ٥.

المطلب الثالث: الشيعة ـ الامامية ـ

حصل في الساحة الإسلامية الكثير من الأمور التي غيرت مجرى الحياة التي كان عليها عهد سيدنا محمد صلى الله عليه آله وصحبه وسلم . ومن أهمها قضية الخلافة والحكم ومن الذي يستحقها من المسلمين .

فكانت نتيجة هذا الأمر ان يكون آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في معزل عن إدارة الحكم .

ولاشك أن آل بيت الأطهار هم الأولى من غيرهم في قيادة الأمة الإسلامية، لذلك ظهر انصار الإمام علي عليه السلام الذين رفعوا مظلومية آل البيت على مر التاريخ وهم الشيعة، أي شيعة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وسيدنا علي بن ابي طالب، وآلهم الكرام عليهم السلام جميعا .

أولاً: تعريف الشيعة: يطلق لفظ الشيعة لغة على " الصحبِ والأتباع، ويُطلق في عرف الفقهاء، والمتكلمين من الخلف، والسلف، على أتباع سيدنا علي عليه السلام "[1]

أما اصطلاحا: فهم: " الذين شايعوا سيدنا علياً عليه السلام على الخصوص وقالوا بإمامته، وخلافته نصاً ووصيةً، إما جلياً، وإما خفياً، واعتقدوا إن الإمامة لا تخرج من أولاده، وان خرجت فبظلم يكون من غير، وقالوا: ليست الإمامة قضيةً مصلحية تناط باختيار العامة، وينتصب الإمام

---

[1] مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرمي، دار القلم، بيروت ط٥، ١٩٨٤ /١: ١٦٩ .

بنصبهم، بل هي قضية أصولية وهي ركن الدين لا يجوز للرسل _ عليهم الصلاة وسلام. إغفاله، وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، يجمعهم القول بوجوب التعيين، والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا، عن الكبائر، والصغائر، والقول بالتولي، والتبرؤ، قولا، وفعلا "[1].

ولهم على مدى التاريخ الإسلامي: حكومات، وعلماء، وكتّاب، وشعراء، وفلاسفة، ومفكرون، ومدارس، ومؤلفات، ومكتبات، وخطباء ومرشدون، وهم يعتنون بالقرآن الحكيم اعتناءً بالغاً: دراسة، وتجويدا، وتفسيرا، وحفظا، وعملا، وتمسّكا، ولهم مدارس خاصة لحفظ القرآن الحكيم.

ثانياً: أصول الدين عند الشيعة

اتفق جمهور الشيعة الإمامية الاثني عشرية على أن أصول الدين خمسة هي: "١- التوحيد ٢- العدل ٣-النبوة ٤-الإمامة ٥-المعاد"[2].

وهم يعتقدون أن مصادر الفقه الإسلامي أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والعقل، ولا يجوز سنّ قوانين تخالف هذه المصادر.

يجمعهم القول " بوجوب التعيين والتنصيص على الإمام، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الصغائر والكبائر، والقول بالتولي والتبري قولا وفعلا وعقدا إلا في حال التقية، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك"[3].

---

[1] الملل والنحل /١: ١٤٥ .

[2] أصول الدين / ٦٠ .

[3] الملل والنحل / ١: ٩٣ .

ثالثاً: ابرز ادلة الشيعة " حديث الغدير"

ومجمل القصة: أن الرسول صلى الله عليه وآله لما رجع من حجة الوداع، وصل إلى موضع يقال له "غدير خُمّ" فأوقف الناس عن المسير، وصعد المنبر في حرّ الظهيرة وخطب خطبة طويلة بمحضر أكثر من مائة ألف شخص، وأوصى بالتمسك بالإمام علي وآل البيت الأطهار عليهم السلام .

حيث روى ابن حِبان في صحيحه أن سيدنا علياً عليه السلام، قال: " أَنْشُدُ اللَّهَ كُلَّ امْرِئٍ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ لَمَّا قَامَ، فَقَامَ أُنَاسٌ فَشَهِدُوا أَنَّهُمْ سَمِعُوهُ يَقُولُ: "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟ " قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَإِنَّ هَذَا مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ " [1].

وذكر الحاكم النيسابوري في المستدرك في سياق هذه القصة قول سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: " إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ، كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَعِتْرَتِي، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ " [2].

---

[1] صحيح ابن حبان /١٥: ٣٧٦ .

[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم /٣: ١١٨ .

رابعاً: دور الشيعة في صياغة الفكر الاسلامي .

يكمن دور الشيعة في الالتزام التام بموالاة آل بيت النبي عليهم السلام منطلقين من ادلة ثابتة عند جميع المسلمين من سنة وشيعة، ذلك أن وجود هكذا فكر يؤدي الى توازن عملي وأخلاقي بين طوائف المسلمين، فالمسلمون جميعاً يتفقون على أن آل بيت الرسول عليهم السلام هم وصية النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين بعد القرآن الكريم، فمن تمسك بهما فقد اهتدى ومن خالفهما فقد ضل وأضل . أما من الناحية السياسية فقد كان لآل البيت وأنصارهم الاثر الكبير في الوقوف امام الظالمين في كل زمان ومكان .

قال السيد منذر الحكيم: " لقد كان للأئمة عليهم السلام نشاط مستمر تجاه الحكم القائم والزعامات المنحرفة وقد تمثل في إيقاف الحاكم عن المزيد من الانحراف بالتوجيه الكلامي تارة أو بالثورة المسلحة ضده تارة اخري حينما كان يشكل انحرافه خطراً ماحقاً وإن كان يكلفهم ذلك حياتهم، أو عن طريق إيجاد المعارضة المستمرة ودعمها بشكل وآخر مرة ثالثة من أجل زعزعة القيادة المنحرفة بالرغم من دعمهم للدولة الإسلامية بشكل غير مباشر حينما كانت تواجه خطراً ماحقاً أمام الكيانات المخالفة، وكان للأئمة عليهم السلام نشاط مستمر في مجال تربية الأمة عقائدياً وأخلاقياً وسياسياً وذلك من خلال: تربية العلماء الصلحاء

والكوادر العلمية والشخصيات النموذجية التي تقوم بمهمة نشر الوعي والفكر الإسلامي وتصحيح الأخطاء في فهم الرسالة والشريعة، ومواجهة التيارات الفكرية الحاقدة والمنحرفة أو التيارات السياسية الخاصة التي كان يستخدمها الحاكم المنحرف لدعم زعامته.)[1].

المطلب الرابع: الأشاعرة .

أولاً: تعريف الأشاعرة:

هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المنتسب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما "[2] والأشعري هو " أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر.إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري .رضي أللـه عنه .صاحب رسول الله.صلى الله عليه وسلم.هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب السنة، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية، ومولده سنة سبعين ومائتين، وقيل ستين ومائتين بالبصرة. وتوفي سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة، وقيل: سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وقيل: سنة ثلاثين فجأة ببغداد ودفن بين الكرخ وباب

---

[1] مقال بعنوان: دور اهل البيت عليهم السلام في حياة الرسالة الاسلامية، للكاتب السيد منذر الحكيم، ضمن وقائع صحيفة بلادي

http://beladitoday.com/index.php?aa=pdf.

[2] الملل والنحل / ١: ٩٣ .

البصرة، رحمه الله تعالى"[1] برع .رحمه أللـه .في علمي الكلام والجدل على طريقة أهل الاعتزال حتى صار رأسا من رؤوسهم، ولما كمل نضجه العقلي ترجحت عنده مذاهب أهل السنة وأدلتهم فأعلن خروجه على المعتزلة، وذلك بعد مناظرات مع شيخه الجبائي، قيل بلغت مؤلفاته أكثر من ثلاثمائة من أهمها مقالات الإسلاميين وإثبات القياس، وألمع في الرد على أهل الزيغ والبدع[2].

ثانياً: نشأة الأشاعرة .

يعد ظهور المذهب الفكري الأشعري انطلاقة سليمة في الساحة العقدية ونقطة تحول هامة في الفكر الإسلامي بشكل عام وبعلم الكلام بشكل خاص " فمن جهة أصبحت أغلبية أهل السنة وهم بدورهم يمثلون أغلبية المسلمين تدين بهذا المذهب الكلامي ومن جهة أخرى أصبح علم الكلام معترفا به كعلم من علوم الدين " [3].

---

[1]وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، ت: ٦٨١هـ، تحقيق :إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م . /٢٨٤:٣.

[2] ينظر: موسوعة الفرق والجماعات والأحزاب المعاصرة / ٥١ .

[3]الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات النشأة التاريخ العقيدة التوزع الجغرافي، سعد رستم، دار الأوائل، سوريا، ط١، ٢٠٠٤. / ٢٣ .

ثالثاً: دور الأشاعرة في صياغة الفكر الإسلامي .

يُعدُّ الاشاعرة تياراً تجديدياً مصححاً لما جرى من اخطاء في ميدان الساحة العقلية والفكر الإسلامي بسبب النهج الاعتزالي الذي انتشر بين المسلمين .

"لقد قام التيار الأشعري بمحاولة تصحيحية إذ أدرك أبو الحسن الأشعري الذي كان معتزلياً، التطرف الديني الذي أصاب التيار المعتزلي وأثبت هو وتلامذة مدرسته الكبار من أمثال الباقلاني والجويني والغزالي والفخر الرازي وغيرهم إن العقل المتنازع فيه لا يمكن أن يقدم على النصوص قاطعة الدلالة "[1].

وقد خالفت الأشاعرة المعتزلة في الكثير من العقائد، ومنها مخالفتهم المعتزلة بجواز رؤية الله سبحانه وتعالى وقد " أطبقت الأشاعرة وغيرهم من أهل الحق على جواز رؤية الباري عقلا ووقوعها شرعا "[2].

ومن هنا جاء الإمام ابو الحسن الأشعري رحمه الله، بمنظومة عقدية، ومنهج وسطي عادل بين الجميع، يقرب وجهات نظر العقليين والنقليين، لا يجنح فيه الى عقلانية المعتزلة، ولا يقف عند ظاهر النص الذي التزمه الحشوية فجمدوا النص نهائياً .

---

[1] الفكر الإسلامي تقويمه وتجديده، لمحسن عبد الحميد/ ٢٦.

[2] غاية المرام في علم الكلام، سيف الدين الآمدي، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٤. / ١: ١٥٩

مما أدى إلى إعادة الوحدة الإسلامية واحترام النقل الصريح العقل الصحيح معاً، وإقامة توازن وتكامل بين الأدلة العقلية والأدلة الشرعية ؛ وهذه الوسطية تتبلور في مجال المعرفة في توسطه بين الوحي والعقل، وفي الإلهيات بين التشبيه والتنزيه، وفي الإنسانيات بين الجبر والتفويض .

هكذا تمت صياغة الفكر الإسلامي على مر التاريخ منذ خروج الخوارج على الإمام علي عليه السلام واطلاقهم شعار التكفير، واختلافهم في مسألة مرتكب الكبيرة التي دفعت باقي المسلمين للإدلاء بدلوهم ونصرة الدين، ابتداءً من الشيعة الذين حملوا على عاتقهم همَّ الدفاع عن آل البيت الاطهار، وانتهاءً بالأشاعرة الذين وقفوا امام التيارات الفكرية الفلسفية، ووازنوا بين العقل والنقل .

المبحث الثاني: ظهور الفكر الإسلامي.

المطلب الاول: النشأة والتأسيس للفكر الإسلامي.

إن عصر النبوة كان عصراً مستنيراً بالوحي وكانت آيات القرآن تتنزل لتعليم الناس الدين فقد تنزل القرآن الكريم على مدى ثلاثة وعشرين عاماً في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكانت عملية تلقي الوحي تحقق عملاً تربوياً لإعداد أمة الإسلام التي ستغير العالم بأنوار الرسالة الكاملة والأخيرة على الأرض، وبناءً على هذه الحقيقة فإن السمة العامة لعصر النبوة كانت التفاعل مع الوحي بشقيه الكتاب والسنة، وتحويل تعاليم القرآن إلى واقع عملي وخطوات لبناء المشروع الحضاري الذي تمثل بالإسلام ديناً حضارياً لمواجهة الحضارات الهادية التي كانت سائدة، ولقد تنزلت آيات كريمة تثني على جيل الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين بايعوا وجاهدوا مع رسول الله ﷺ لبناء هذه التجربة العظيمة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً

[1] سورة الفتح: الآية (١٨).

مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وكان عصر النبوة عصر بناء وعصر عمل ولم يكن عصر جدل وعاش جيل الصحابة يتلقى القرآن وتوجيهات النبي ﷺ بسعادة غامرة وإيمان عميق وفهم دقيق ورغبة صادقة بالاتباع فلم يجرؤ الصحابة على كثرة الأسئلة، وقد وردت في القرآن الكريم آيات قليلة إجابات عن أسئلة سألها الصحابة الكرام، وكانت الآيات تستفتح بقوله تعالى: يسألونك عن الشهر الحرام....، ويسألونك عن الأهلة....، ويسألونك عن المحيض... وهكذا، فقد كان عصر النبوة عصر تطبيق القرآن واتباع السنة، وأعظم من طبق القرآن الكريم وحوّله إلى سلوك هو الرسول ﷺ، فقد ورد في الحديث (أنه ﷺ كان خلقه القرآن)[2]، وكان مهمة الصحابة استلام الوحي والاجتهاد في تطبيقه والتسليم بما ورد فيه من حقائق كما قال تعالى:

---

[1] سورة الحشر: الآيات (٨. ١٠).

[2] الحديث رواه مسلم، وفي شرح مسلم للنووي: ٢٥٨/٣، رقم الحديث في مسلم (٧٤٦)، عن موقع الاسلام سؤال وجواب/ المشرف العام الشيخ محمد صالح المنجد.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء: ٦٥

بعد وفاة الرسول ﷺ: بعد الرحيل إلى الباري (عز وجل) عاشت الأمة صدمة عنيفة ذهل على أثرها أكثر الصحابة، من هنا بدأت تجربة الفكر الإسلامي في الظهور في عصر غاب فيه الوحي، وأطلق العقل الذي تربى على تلقي الوحي في عصر النبوة لكي يمارس دوره في الاستدلال واستنباط الحلول للمشكلات التي ستواجهه، وكما ذكرنا ان العقل البشري فيه استعداد للاختلاف، وإن هذا الخلاف قد يكون مذموماً، وقد يكون اختلافاً إيجابياً يشحذ الفكر وينمي القدرات العقلية ويحقق تفاعلاً متوازناً بين الواقع والنصوص، وبناء على ذلك فإن الصحابة لم يختلفوا في مجالات ترسخت في البناء التربوي الذي حققه رسول الله ﷺ، فلم يختلفوا في مسائل الإيمان بالله تعالى وتوحيده، ولم يختلفوا في القرآن الكريم ودور الرسول ﷺ في بيان الشريعة، وكذلك لم يختلفوا في مسائل الإيمان العملية في الصلاة والزكاة والحج والصيام، وإنما كانت هناك آراء فقهية متنوعة لفهم النصوص لم تؤدي إلى تنازع وتصارع، وكان خلافهم في مسائل غير هذه وهي مسائل السياسة وبعض التطبيقات العملية للنصوص الشرعية، وكانت قليلة جداً، والحقيقة التي أثبتناها هي ان الاختلاف ملازم للطبيعة البشرية كما قال افلاطون: (إن الحق لم

يصبه الناس في كل وجوهه ولا أخطأوه في كل وجوهه، بل أصاب كل إنسان جهة، ومثال ذلك عميان انطلقوا إلى فيل، وأخذ كل منهم جارحة بيده فأخذوا يصفون الفيل بحسب ما كان يتحسس بيده..، وأسباب الاختلاف عديدة منها غموض الموضوع في ذاته ومنها اختلاف الرغبات والشهوات ومنها اختلاف الاتجاه واختلاف المدارك ومنها تقليد السابقين ومنها الرياسة وحب السلطان)[1].

المطلب الثاني: أسباب اختلاف المسلمين

يمكن إيجاز أسباب اختلاف المسلمين وهي عديدة بما يأتي:

١ـ التراجع عن المستوى الإيماني والعقدي الذي كان في حياته ﷺ، وهذا عند من لم يكن له حظ من التربية النبوية ممن أسلم حديثاً في عصر النبوة، وبناء على هذا الأساس حدثت حوادث الردة عند بعض القبائل البعيدة عن المراكز الإسلامية الكبرى مكة والمدينة والطائف، وإلى هذا أشار الرسول ﷺ في الحديث (استيقظ النبي ﷺ محمراً وجهه يقول: (لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب)[2].

---

[1] ينظر: تاريخ المذاهب الإسلامية، الإمام محمد أبو زهرة: ص١١ وما بعدها .

[2] الحديث في البخاري: ٣/ ١٣١٧، رقم الحديث: ٣٤٠٣، ومسلم: ٤/ ٢٢٠٨، رقم ٢٨٨٠، وفي النسائي وابن ماجه .

وكذلك في حديث افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة[1]، وهذا الحديث حصل عليه كلام كثير وإن علماء الحديث أشاروا إلى ان زيادة (كلها في النار) موضوعة، وكذلك العدد الذي ذكر في الحديث لعدد الفرق مخالف لمقاصد الإسلام الكبرى، كما ذكر ذلك بعض العلماء ان أمة الإسلام هي خير الأمم فكيف تزيد في فرقتها على اليهود والنصارى؟

والراجح ان الحديث يصرف معناه على التحذير من الفرقة وليس على الحكم على المخالفين وإنما على ان الضعف في الفرقة والقوة في الوحدة، فالحديث توجيه للأمة للتمسك بالكتاب الذي هو حبل الله المتين والسنة المشرفة التي هي الوسيلة الوحيدة، وللتمكن من التمسك بكتاب الله تعالى.

٢ـ ومن أسباب الاختلاف: العصبية للقبائل والانحياز للمناطق كما كان أصحاب مسيلمة يقولون (كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر)، وهو مثل أطلقه أصحاب مسيلمة الكذاب روى في كتب التاريخ كما في البداية والنهاية، لابن كثير احداث مقتل مسيلمة، وفي الحديث عنه ﷺ (ليس منا من دعا إلى عصبية)[2]، وقد ظهرت العصبية بعد وفاة النبي ﷺ وتحديداً في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ، وتقوت على يد

---

[1] الحديث في الترمذي رقم **٢٦٤٠**، وقال عنه حسن صحيح، والحاكم رقم (١٠)، وابن حبان رقم **٦٢٤٧** .

[2] أبو داود، رقم الحديث: **٥١٢١** .

الخوارج فقد انتشر مذهبهم في القبائل البدوية من ربيعة لا من القبائل المضرية، وكما هو معروف ان بداية المطالبة بدم عثمان كانت على يد الأمويين على اعتبار انهم عصبة عثمان وهم أولى بمن يطالب بدمه، وكان هذا الأمر عاملاً قوياً في تأجيج الصراع بين الأمويين في الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان وبين الإمام علي (عليه السلام) وبني هاشم.

٣. ومن أسباب الاختلاف بين المسلمين تداخلهم واحتكاكهم بأهل الديانات القديمة الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، وأخذوا يتلقون عقائد الإسلام على ضوء ما كانوا يحملونه من العقائد التي كانت مترسبة في داخل وعيهم، وكان التفاعل بين عقائد الإسلام وبقايا هذه العقائد قد أثار شبهات الجبر والاختيار، فكانت أول المشاكل الفكرية التي واجهت المسلمين هي مشكلة القضاء والقدر، وهل الإنسان مسير أم مخير، وكذلك صفات الله تعالى وعلاقتها بالذات الإلهية.

٤. التنازع على الخلافة: وهو من الأسباب الجوهرية التي أسست للخلاف السياسي الذي كان أساساً لنشوء الفرق والصراع بين المسلمين بسبب عدم وجود نص صريح وجلي قطعي الثبوت قطعي الدلالة لمن يخلف النبيﷺ.

٥. الترجمة: إن حركة الترجمة أدت إلى دخول الفكر الفلسفي اليوناني في المنظومة الإسلامية وتأثر بالفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي الكثير من مفكري الإسلام عن طريق اقتباس الأسلوب الفلسفي في عرض

الفكر الديني، وذلك للرد على أهل النحل الأخرى عندما كانوا يثيرون الشبهات حول الإسلام وهؤلاء لم يكونوا يؤمنون بالأدلة الشرعية القرآن والسنة، فاضطر بعض العلماء إلى الاستعانة بالفلسفة والمنطق الأرسطي والقياس العقلي للرد على هؤلاء وإقناعهم للتخلي عن عقائدهم القديمة.

٦ـ من الأسباب المهمة للاختلاف بين المسلمين هو ورود نصوص قرآنية فيها المتشابهات، ويعجز العقل البشري عن الإحاطة بها قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1]. ومن المتشابهات آيات الصفات الخبرية مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[2].

٧ـ الإسرائيليات: وهي الروايات التي دخلت التراث الإسلامي عن طريق من أسلم من أهل الكتاب استعان بها العلماء وبعض الدارسين لتفسير آيات القرآن الكريم، وكذلك لمعرفة قصص الأنبياء، وقد شاع في عصر عثمان (رضي الله عنه) ظهور طبقة من القصاص في المساجد، وكره الإمام علي (عليه السلام) هذه الظاهرة (حتى أخرج القصاص من المساجد لما كانوا يضعونه في اذهان الناس من خرافات وأساطير بعضها

---

[1] سورة آل عمران: الآية (٧).

[2] سورة طه: الآية (٥).

مأخوذ من الديانات السابقة بعد أن دخلها التحريف.. وربما كان هذا القصص السبب في دخول الكثير من الإسرائيليات في كتب التفسير والمغازي والسير أي كتب التاريخ)[1].

هذه هي أهم الأسباب في حصول الاختلاف الفكري بين المسلمين، ولكن لو تتبعنا جذور الخلاف نجد أن كل الاتجاهات حاولت أن تبرر شرعيتها بتوفير غطاء مرجعي من الكتاب والسنة، من هنا نشأت مسألة التأويل للنص القرآني، وعن طريق التأويل الذي يمكن وصفه بأنه صرف المعنى الظاهري للنص إلى معنى آخر لوجود قرائن تمنع أخذ المعنى الظاهر للنص القرآني، فكان انقسام الفكر إلى تيارات ومدارس نتيجة حتمية للاختلاف في فهم النص الديني.. وتحول إلى انقسام ضار وغير مشروع حين يجنح مذهب أو تيار إلى الانغلاق الذاتي والتشبع بفكرة مزعومة عن حيازه الحقيقة المطلقة وتكفير المخالفين وإخراجهم من الملة.. وبذلك يتم التخلي عن دائرة الاجتهاد في فهم الدين والدخول في لعبة الاستيلاء على المعنى قصد احتكار الدين.. وهذه الظاهرة أدت إلى تحجيم الاندماج الديني للمجتمع، فتكون المذهبية تمثيلاً لظاهرة انعدام الاندماج الديني في الإسلام وفي غيره من الأديان، وتتحول الفرق والتيارات إلى سجون مغلقة ومعازل فاصلة.. ان الخطأ الذي وقعت فيه

---

[1] ينظر: تاريخ المذاهب الإسلامية/ م. س/ حول أسباب الاختلاف: ص١٣ وما بعدها .

السلفيات والأرثوذكسيات هو إقامة فاصل بين النص الديني والبشر المؤمنين به وتتحول بناء على ذلك كل المفاهيم البشرية إلى ظاهرة دينية مقدسة ونظام قيم وطريقة حياة، فالدين كما هو معلوم نص صامت بين دفتين يحتاج إلى من ينطقه، وإذا كان الرجال من ينطقونه على حد تعبير الإمام علي (عليه السلام) ويضخون فيه الحياة فهم إنما يتأولونه في اتصالهم به فيتحول الدين إلى حصيلة ذلك التأويل الذي لا يكون فيه النص إلا عنصراً من عناصر أخرى تتدخل في تشكيل ما يسمى بشبكة التأويل، وهكذا فالدين ليس نصاً فحسب وإنما ينبغي النظر إليه هو كل يتشكل من النص والجماعة والتأويل، ولا يصبح التمذهب خطراً على وحدة المجتمع حين يكون مجرد اختلاف وتخندق في الدين وراء يقينيات مغلقة، لكنه يصبح كذلك حين يتدخل في السياسة أو يتحول إلى لاعب في الحياة السياسية)[1]، وهذا التشخيص يتحقق في حالة تحول الخلاف السياسي إلى خلاف عقدي يؤدي حالة من التصارع على السلطة واستباحة دماء المخالفين، وهذا ما حصل في بدايات الخلاف السياسي الذي حصل بعد وفاة الرسولﷺ الذي سرعان ما اختفى، وتوحدت الأمة ثم ثار من جديد بعد مقتل عثمان رضي الله عنه الخليفة الثالث، ثم تأجج بعد مقتل الإمام علي (عليه السلام) وتفرقت الأمة إلى شيع وأحزاب متناحرة وظهرت بدعة

[1] ينظر: المذهبية تاريخاً وراهناً واخطاراً، عبد الإله بلقيز، مجلة المستقبل العربي، العدد ٤٢٣ لسنة ٢٠١٤: ص١٦ وما بعدها .

التكفير واستباحة دماء المسلمين فيما بينهم، وكانت أولى المشاكل السياسية هي مسألة الخلافة التي سنتعرض لها ولبعض المسائل المهمة في الفكر الإسلامي في مرحلة التأسيس بعد رحيل المصطفىﷺ، وكيف تكونت جذور الفرق والأحزاب والتيارات السياسية ثم العقائدية والفكرية فيما بعد.

الفصل الثالث

مجالات الفكر الإسلامي ومحاوره

الفصل الثالث

مجالات الفكر الإسلامي ومحاوره

تحدثنا في ما سبق بأن الفكر الإسلامي هو حركة العقل والاستدلال والتفاعل مع المرجعية النصية في الإسلام (القرآن والسنة) وهو بذلك يشمل كل مجالات العلوم الإسلامية من التفسير وعلوم الحديث (دراية ورواية)، وكذلك الفقه وأصوله في عملية استنباط الأحكام والتاريخ والسير ولكن الفكر الإسلامي في مجال التدوين والتصنيف، وتبويب العلم انحصر في مجال العقيدة والدفاع عنها، وفي مجال ما يسمى في الفهرسة الإسلامية بأصول الدين وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية والتصوف والفرق الإسلامية، وكذلك في مجال دراسة الأديان المقارنة والتربية ومعالجة الأفكار والشبهات والتحديات المستجدة، والتيارات الفكرية المعاصرة، فأصبح مجال الفكر الإسلامي في التخصصات الدقيقة أعلاه ولكن تبقى التداخلات والمعالجات المشتركة قائمة في مجال التخصصات الأخرى، وفيما يأتي بيان لعلاقة الفكر الإسلامي بالمجالات القريبة والمساحات المشتركة في حركة الفكر والنظر في العلوم الإسلامية بحسب قربها من دائرة الفكر الإسلامي.

أولاً: أصول الدين.

يعد أصول الدين من أهم العلوم في الدراسات الإسلامية، وأصول الدين هو العلم الذي يدرس العقائد الإسلامية إثباتاً وتحقيقاً ودفاعاً ليكون الدارس على علم في اعتقاده ويبتعد عن التقليد، والفكر الإسلامي في جوهره يعبر عن أصول الدين ويحقق خصائصه في الدفاع عن العقيدة وإثباتها، ولعلم أصول الدين خصائص منها:

١. إن علم أصول الدين يعتمد البحث والنظر والاستدلال العقلي وسيلة لإثبات العقائد الدينية التي تثبت بالوحي.

٢. اختلف العلماء في وظيفة هذا العلم هل يثبت العقائد الدينية كما يدافع عنها؟ أم إن وظيفته هي تقريرها ودفع الشبه عما يثبت بالوحي فقط، وسبب الخلاف حول وظيفة العقل هل يثبت العقائد أم أن العقائد ما يثبت عن طريق الشرع فقط؟

(أهل السنة قالوا بأن العقائد تثبت بالشرع فقط، وذهب الشيعة والمعتزلة إلى أن العقل له دور في إثبات هذه العقائد بتولية الشرع)[١]، وهذا القول يؤكد أهمية العقل في تقرير المسائل الخطيرة، وإن العقل له قيمة عليا دعا إليه النقل وأكد عليه، (ومن مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين

[١] ينظر: أصول الدين الإسلامي، د. رشدي عليان ود. قحطان الدوري: ص٢٦ .

المسلمين؛ لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتاً تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ، وتلك المزية

هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعية والتكليف.

وفي القرآن الكريم أكثر من ثمانين آية تدعو الى التفكر واستخدام العقل مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1]، والقرآن الكريم في الوقت الذي استوفى فيه أصول العقيدة الإسلامية وأقام البرهان عليها فإنه حكى عقائد المخالفين وأبطلها بالحجة، فقد رد على منكري النبوات، وكذلك رد على منكري البعث في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

وكذلك رد على عبدة الكواكب ورد على عبدة الملائكة ورد على اليهود والنصارى، ولكن المنهج القرآني لم يكن يعتمد الجدل لأنه يورث الكراهية[3]، ولا يحقق الغاية من سياق الدليل واكتفى القرآن بعرض حقائق الدين كأسلوب معجز، وعلى هذا الأساس كان العقل يؤدي دوراً مهماً في

---

[1] سورة البقرة: الآية (١٦٤) .

[2] سورة يس: الآيتان (٧٨ . ٧٩) .

[3] ينظر: أصول الدين الإسلامي، م. ن: ص٢٦ . ٣٥ .

علم أصول الدين وبسببه تم التحقق من الكثير من العقائد، وتم إبطال الكثير من الشبهات، لذلك يعرف أصول الدين محمد فريد وجدي بقوله: "علم أصول الدين: علم يشتمل على بيان الآراء والمعتقدات التي صرح بها رسول الله ﷺ وإثباتها بالأدلة العقلية وتزييف كل ما خالفها"[1].

وأصول الدين مصطلح مركب يعني الأسس التي يقوم عليها الدين فهو أصل العلوم، وأدخله العلماء بعد التدوين بعلم الكلام؛ لأن الوظيفة واحدة. وقد حدد علماء الإسلام أصول الدين كما ذكرنا سابقاً وكما يأتي:

أ. أصول الدين عند أهل السنة:

أصول الدين عندهم هي أركان الإيمان المذكورة في القرآن الكريم، وهي:

١. الإيمان بالله.
٢. الإيمان بالرسل.
٣. الإيمان بالكتب السماوية.
٤. الإيمان باليوم الآخر.
٥. الإيمان بالملائكة.
٦. الإيمان بالقدر خيره وشره.

وهذه الأركان اتفق عليها جمهور أهل السنة.

---

[1] أصول الدين الإسلامي، م. س، يأخذ عن دائرة المعارف، لمحمد فريد وجدي، ج٦: ص٦٢٠.

ب. أصول الدين عند الأمامية:

اتفق جمهور الشيعة الامامية الاثني عشرية على ان أصول الدين خمسة وهي:

١. التوحيد.
٢. العدل.
٣. النبوة.
٤. الإمامة.
٥. المعاد.

ج. أصول الدين عند المعتزلة:

وهم فرقة إسلامية استعملت العقل في إثبات العقائد والدفاع عنها، وكان ظهور هذه الفرقة في بداية القرن الثاني للهجرة، وأهم رجالها واصل بن عطاء (ت١٣١هـ)، وقد اندرست هذه الفرقة ولكن بقي تأثيرها في باقي الفرق، وتركوا تراثاً ضخماً في مجال أصول الدين وعلم الكلام هؤلاء اتفقوا على ان أصول الدين خمسة وهي:

١. التوحيد.
٢. العدل.
٣. المنزلة بين المنزلين.
٤. الوعد والوعيد.
٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه الأصول عندهم من آمن بها فهو منهم ومن لم يؤمن بواحدة فهو ليس منهم، فهم يؤكدون على ضرورة الإيمان بهذه الخمسة.

كانت تلك أصول الدين التي استنبطها علماء المسلمين من مصادر الإسلام الثابتة القرآن والسنة، ولكن هناك أصول حققت إجماع الفرق والمذاهب وهي الأصول المشتركة ويمكن بيانها كما يأتي:

١. الاعتقاد إجمالاً بوجود الله تعالى وبجميع صفاته الثبوتية الراجعة إلى انه تعالى متصف بجميع صفات الكمال، وكل ما ينفي عنه صفات النقص وينزهه عنه.. ولا يلزم الاعتقاد بذلك تفصيلاً وإنما يكفي الإيمان به تعالى إلهاً خالقاً.
٢. الاعتقاد بنبوة محمد ﷺ اعتقاداً وانقياداً بصدق الرسالة ومحبة شاملة لتعاليمه وسيرته.
٣. الاعتقاد باليوم الآخر والبعث بعد الموت وبالثواب والحساب، وهذه الأصول الثلاثة من آمن بها إيماناً إجمالياً بدون تفصيل وصدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ ولم ينكر شيئاً مما علم من الدين بالضرورة كالإيمان بالفرائض فإنه يعتبر مؤمناً ومسلماً من أمة السلام المرحومة.

ويعتبر كافراً كل من لم يعتقد ويؤمن بهذه الأصول الثلاثة أو أنكر ضرورية من ضروريات الدين، وذلك يتصور على وجوه:

١. أن ينكر قبول ما علمه بواسطة الضرورة من الدين كالفرائض.
٢. أن ينكر انه مما جاء به النبي ﷺ.

٣. أن ينكر انه يخالف الحكمة والمصلحة..)[١].

الأصل الديني والأصل المذهبي

توضح لدينا أن الدين يقوم على أسس عقدية وهو أساس لكل عمل أو علم أو نظر في إطار الدين الإسلامي، وهناك أسس متفق عليها كما أشرنا، وأسس أو أصول اختلف فيها بين المذاهب الإسلامية وهي تشكل أصولاً لكل مذهب آمن بها وخالف بقية المذاهب، ولكن هذا الخلاف كان بسبب النظرة إلى النص والتأويل لدلالة الألفاظ في النصوص المرجعية، وعلى هذا فإن الأصول تنقسم على قسمين:

١. الأصل الديني: وهو الأصل العقدي المعلوم عند أتباع الدين جميعاً كالإيمان بالله والنبوات.

٢. الأصل المذهبي: وهو الأصل المعلوم عند جميع أهل المذهب كالإيمان بالقدر عند أهل السنة والامامة عند الشيعة.

والأصل الديني يستلزم إنكاره الخروج من الدين إلى الكفر، والأصل المذهبي يستلزم إنكاره الخروج من المذهب لا الكفر، أما إذا كان معتقداً بصحة صدور الأصل المذهبي عن النبي ﷺ وأنكره فإنه حينئذ يعد خروجاً من الدين؛ لأنه أنكر أصلاً دينياً وهو النبوة.

---

[١] أصول الدين الإسلامي، م. س: ص٦٧ .

ثانيا: الفقه الاسلامي وأصول الفقه واثرهما الفكري

أصول الفقه: يعرفه العلماء اصطلاحا: هو العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، وهو القواعد والأدلة العامة التي يتوصل بها إلى الفقه، مثل القاعدة الأصولية الأمر للوجوب ما لم تصرفه قرينه عن ذلك والنهي للتحريم حتى تصرفه قرينه عن ذلك، والأدلة التفصيلية تشمل الأدلة والبراهين التي يستند إليها في معرفة الأحكام الشرعية مثل القرآن والسنة والاجماع والقياس.

أما الفقه: فهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية[1]، مثل وجوب الصلاة وحرمة الخمر، ونشأ علم أصول الفقه والفقه بعد ظهور الحاجة إلى الاجتهاد ومعرفة أحكام الشرع فيما استجد من أمور الحوادث والمستجدات ولذلك كانت الفقه يعبر عن إجابة الأدلة الشرعية لما يطرأ من حوادث لم تحدث في عصر النبوة أو حدث ما يشابهها وبني على المشابه بالقياس في الحكم، واختص علم أصول الفقه بالمسائل العملية في حين اختص علم أصول الدين بالمسائل النظرية، فالأول كان يعالج مسائل الحلال والحرام وما يترتب عليها من أعمال في سلوك الفرد والمجتمع ابتداء من العبادات مروراً بالمعاملات وانتهاءً بالحدود والأحكام السلطانية أما علم أصول الدين فكان يعالج مسائل الشبهات والأدلة

[1] تيسير علم أصول الفقه، عبدالله بن يوسف الجديع، ص١١-١٢.

النظرية والعقلية والفلسفية المرتبطة بالعقائد والدين اثباتاً ودفعاً مثل إثبات وجود الله ورد شبهات الملحدين والمجادلين من أهل الباطل.

نشأة المذاهب الفقهية .

لقد بدأت نشأة الفقه تدريجياً في حياة النبي صلّى الله عليه وآله وسلم، وفي عصر آل البيت عليهم السلام و الصحابة الكرام، وكان سبب نشوئه وظهوره المبكر هو غياب النبي صلّى الله عليه وآله وسلم، وحاجة الناس الماسة إلى معرفة أحكام الوقائع الجديدة، لان لكل واقعة موقفا شرعيا، فعندها ظهر خطان اساسيان في الفقه متمثلان بخط اهل البيت والصحابة، والخط الاول ظل ملتزما بمنهج أهل البيت، وانه ظل يعيش عصر النص الى زمن الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري **٣٢٩**هـ إذ يعدون اهل البيت) امتدادا لرسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)، واما الخط الثاني فبدأ بإيجاد سبل ووسائل تغطي هذا النقص الحاصل من غياب المشرع بفتح باب الاجتهاد، وظهرت قبال الخط الاول المذاهب الاربعة، إذ ظلت الحاجة إلى الفقه قائمة في كل زمان لتنظيم علاقات الناس الاجتماعية، ومعرفة الحقوق والواجبات لكل إنسان، وإيفاء المصالح المتجددة، ودرء المضار والمفاسد المتأصلة والطارئة، وتطور الفقه الاسلامي في إتجاه المذاهب الإسلامية وكان من أهم مصادر التشريع عند المذاهب الإسلامية الاربعة المشهورة هي القرآن والسنة والاجماع

والقياس وهذه متفق عليها ما عدا القياس الذي ينكره البعض باعتباره عمل عقلي وهناك أدلة أخرى أقل درجة من الأربعة السابقة وحولها خلاف أيضاً ويمكن مراجعة مصادر أصول الفقه للاستزادة.

والاجماع يعرفه أكثر أهل المذاهب بأنه ما اتفق عليه المسلمون من الأحكام الثابتة في الكتاب والسنة[1] وهو يقترب من تعريف الإمامية للإجماع الذي سيأتي وفيه اثبتوا أن الاجماع ينبغي موافقة الإمام المعصوم وعند الإمامية السنة تشمل ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة عليهم السلام.

أولا: المذهب الحنفي: وينسب الى الإمام أبي حنيفة عتيك بن زوطي المعروف بالنعمان بن ثابت (**٨٠ - ١٥٠** هـ)، ولد في الكوفة وتوفي في بغداد وأصله فارسي . وكان يعد فقيه العراق وصاحب المذهب المتبع في أكثر البلدان الإسلامية، ولقب بالإمام الأعظم، وكان الإمام أبو حنيفة يستنبط فقهه من القرآن الكريم وما صح عنده من الحديث مع توسع في استعمال الرأي والقياس . وقد تلقى الدرس لمدة سنتين عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام إذ اشتهر عنه قوله في مدح الإمام: (لولا السنتان لهلك النعمان) . وكان أقوى عوامل انتشار مذهبه هو استلام تلميذه أبو يوسف لمنصب رئاسة القضاء في حكومة هارون العباسي والذي كان مقربا " جدا " من

[1] تيسير أصول الفقه، ص**١٥٠**.

الخليفة . ومن أشهر رجال الخليفة محمد الشيباني وزفر بن الهذيل والحسن اللؤلؤي . وقد ألف الشيباني عدة كتب فقهية لها درجة الاعتبار الأكبر عند الحنفية، وله آراء كثيرة خالف فيها الإمام أبو حنيفة . وفي العصور اللاحقة، تبنت الدولة العثمانية المذهب الحنفي ودعمته بكل قوة حتى صار مذهبها الرسمي، وساعدت على انتشاره وذلك بسبب عدم اشتراط الحنفية في الخليفة أن يكون قرشيا " .

ثانيا: المذهب المالكي: وصاحبه الإمام مالك بن أنس (٣٩-١٧٩هـ) المولود في المدينة وهو يمني الأصل . وقد تلقى العلم عن الشيخ ربيعة الرأي والإمام جعفر الصادق عليه السلام .

وكان يستنبط الأحكام بصورة رئيسة وموسعة على القرآن والسنة، ولم يكن للرأي والقياس عنده بالمكانة نفسها التي كانت عند الحنفية، وله كتاب (الموطأ) أورد فيه الكثير من الأحاديث النبوية .

وقد حاول الخلفاء العباسيون الذين سبقوا الرشيد تبني مذهب مالك والعمل على نشره، حتى أن المنصور طلب من مالك نشر مذهبه بالقوة للحيلولة دون انتشار مذهب الإمام الصادق والذي بلغت مدرسته الفقهية آنذاك أوجها، إلا أن مالك رفض طلب الخليفة ثم حاول الرشيد فعل ذلك مجددا " خلال سنوات حكمه الأولى حين كان يعلن: (لا يفتي إلا مالك) . وكان انتشار مذهبه على أيدي القضاة والأمراء في الأندلس وشمال

إفريقيا إذ حل مذهبي الأوزاعي والظاهري اللذين كانا سائدين هناك . ولا زال المذهب المالكي المذهب الرئيسي في بلاد المغرب العربي . وأهم دعاة المذهب هم: القاضي أبو بكر العربي وابن عبد البر القرطبي والقاضي عياض السبتي وأبو الوليد الباجي وابن القطان الفاسي .

ثالثا: المذهب الشافعي: وصاحبه محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ) المولود في غزة، وقد انتشر مذهبه أولا " في مصر ثم صار له أتباع في العراق وخراسان وشمال إفريقيا والأندلس . وهو يتميز من بين المذاهب الأربعة بتنظيمه على أصول موضوعة وقواعد ثابتة ومضبوطة ضبطا " دقيقا "، والمذهب بجملته وسط بين أهل الرأي وأهل الحديث . وقد كان للدولة الأيوبية في مصر بقيادة صلاح الدين العامل الأقوى في نشر مذهبه هناك حيث منع تدريس المذهب الشيعي في الجامع الأزهر الذي أسسه الفاطميون، واستبدل بتدريس مذاهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك، وبنى لهم المدارس ورغب الناس فيها . ومن أشهر رجال الشافعية أبو حامد الغزالي وأبو بكر أحمد بن الحسين والبيهقي.

رابعا: المذهب الحنبلي: وصاحبه الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) المولود في بغداد، وهو آخر المذاهب الأربعة وأقلها أتباعا. وقد كان ابن حنبل في رأي العلماء القدماء - كابن جرير وابن قتيبة والمقدسي وابن عبد البر - من رجال الحديث لا من الفقهاء وقال فيه ابن

خلدون: فأما أحمد بن حنبل فمقلدوه قليلون لبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية بعضها ببعض . وما يشهد على ذلك أنه لم يكتب أي كتاب في الفقه، وإنما اشتهر بكتابه المعروف بمسند أحمد والذي يحوي على أربعين ألف حديث . وله أيضا " كتب أخرى كطاعة الرسول، الناسخ والمنسوخ، والعلل . وقد كاد هذا المذهب – لقلة أتباعه – أن يضمحل بالتدريج لولا تولي عبد الله الحجازي القضاء عام **٧٣٨** هجرية .

ومن أشهر رجال الحنابلة الذين قاموا بنشر المذهب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية . وفي العصور المتأخرة محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الوهابية الذي قام بنشر المذهب الحنبلي في نجد .

خامسا: المذهب الإمامي الاثني عشرية: وسمي بهذا الاسم لأنه قال بإمامة الأئمة الاثني عشر[1]، وسميت أيضا بالشيعة الإمامية لما علقته من الاهتمام بالإمام وعصمته، ويسمى بالمذهب الجعفري نسبة إلى الإمام جعفر الصادقγ (٨٣-١٤٨هـ).

وأدلة التشريع في مذهب الإمامية هي: الكتاب والسنة والإجماع والعقل . فالكتاب هو ما موجود بين الدفتين، لا كما يُفترى على الشيعة بان

[1] أولهم الإمام علي ، وولداه الحسن والحسين ، وعلي بن الحسن، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد ، وموسى بن جعفر ، وعلي بن موسى ، ومحمد بن علي ، وعلي بن محمد ، والحسن بن محمد ،و محمد بن الحسن الحجة(عليهم الاف التحية والسلام).

لهم كتاباً آخر غير القرآن وان الشيعة لا تقول بتحريف القرآن، وان القرآن ظاهر لفظه حجة على كل مسلم . والسنة هي قول وفعل وإقرار المعصوم، وهي حجة اذا كانت مقطوعة الصدور أي متواترة أو مقترنة بالمتواترة، كما تكون حجة اذا كانت ظنية الصدور مع وجود القرائن الدالة على صحتها، والإجماع لا يكون حجة ما لم يرد في قول المعصوم، أي يكون الإمام من ضمن المجمعين. والعقل يكون كاشف عن الحكم الشرعي لا دليل لان العقل لا يشرع، لا كما يتوهم لدى بعضهم .

وأهم كتبهم الفقهية كتاب الشرائع لجعفر بن الحسن الحلي المعروف بالمحقق (٦٧٢هـ)، وشرحه المسمى جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام لمحمد حسن النجفي (١٢٢٦هـ) .وتذكرة الفقهاء للحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (٧٢٦هـ)، واللمعة الدمشقية للشهيد الأول محمد بن جمال الدين مكي العاملي (٧٨٦هـ)، وشرحه الروضة البهية لزين الدين الجبعي العاملي (٩٦٥هـ) وغيرها.

مفهوم الاجتهاد في الفقه الاسلامي.

الاجتهاد في اللغة: بفتح الجيم وضمّها . وذكروا له عدَّة معان:

الطاقة، أو ما جهد الإنسان من مرض أو أمر شاقّ، فهو مجهود، أوالغاية .

اما في الاصطلاح: ان مفهوم الاجتهاد مرّ بمراحل كثيرة قبل ان يصل الى المفهوم الذي عليه اكثر الفقهاء اليوم، إذ كان يمثل في مراحله الاولى الرأي الشخصي للمجتهد، ولم يكن يخرج عن القياس وما يقابله من الممارسات الاجتهادية الاخرى التي وضعت لتحديد الاحكام الشرعية فيما لا نص فيه كالاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها، يقول الشافعي(٢٠٤هـ): (نحكم بالاجماع ثم القياس وهو أضعف من هذا ولكنها منزلة ضرورة؛ لأنه لا يحل القياس والخبر موجود كما يكون التيمم طهارة في السفر عند الاعواز من الماء ولا يكون طهارة إذا وجد الماء إنما يكون طهارة في الاعواز) [١]. فان مفهومه لم يكن يدل على بذل الجهد لاستنباط الاحكام الشرعية من النص، وعد مصدرا من مصادر الاجتهاد قبال الكتاب والسنة والاجماع، وكان الاستنباط من الكتاب والسنة

[١] بابن قيم الجوزية:: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب: إعلام الموقعين عن رب العالمين:، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية/الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هج٤ص٤٣.

والاجماع لا يسمى اجتهادا وانما اختص الاجتهاد في حال عدم وجود النص، وانه لا يصح الا في هذه الحال أي حال عدم وجود دليل في المصادر الثلاثة آنفة الذكر. يقول ابن القيم (٧٥١ هـ): (اجتهادُ الرأي إنما يُباح للمضطر كما تباح له الميتة والدم عند الضرورة، (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (البقرة: ١٧٣) . ولهذا كان السلف لا يفتون بل يتحفظون من الفتوى، فعن البراء انه قال: (لقد رأيت ثلاثمائة من أهل بدر ما منهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى) [١] . كما ان العديد من الصحابة كانوا لا يحللون ولا يحرمون الا بنص.

وقد نقل عن بعض الأئمة عليهم السلام نقدهم للاجتهاد بالرأي وعده الكثير من علماء السنة والشيعة بانه مذموم لأنه يخضع للرأي بلا ضابط من الشرع والنصوص؛ وذلك لان الاجتهاد بالرأي هو المنهي عنه باعتبار أنه يشكل اتجاها خطيرا في الفقه الإسلامي لا من ناحية النتائج التي انتهت إليها فقهيا فقط، وإنما باعتبار الاتجاه والطريق الخاطئ الذي انتهجته في عملية الاستنباط والمعتمد بالأساس على القياس الخاطئ والاستحسان بالهوى والمصالح المرسلة غير المتحققة والظنون وما أشبه ذلك من قضايا مرجعها إلى الرأي، وتنتهي في نهاية المطاف إلى انحراف خطير في فهم القرآن والسنة.

---

[١] الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: تحقيق: دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١- ١٤١٧ - ١٩٩٧ م، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان.

وبعد مرور الزمن اخذ مفهوم الاجتهاد يتغير، وبدأ يدخل الاجتهاد ميدان النص ولا يبقى محصورا فيما لا نص فيه، وهو ما نجده عند العلماء المتأخرين، يقول أبو الحسين البَصْري المعتزلي (٤٣٦هـ): (واعلم أن الفقهاء يعدون من مسائل الاجتهاد ما يستدل عليه بالكتاب كالنية في الوضوء والترتيب وأن الواو للترتيب أو للجمع وأن الفاء للتعقيب)[١].

وقال الغزالي(٥٠٥هـ): (بذل المجتهد وسعه في طلب الحكم ولا يطلق إلا على من يجهد نفسه ويستفرغ الوسع)[٢].

وعلى هذا المعنى انبثق مفهوم الاجتهاد لدى المتأخرين مثل الامدي و البيضاوي والفتوحي والشنقيطي وغيرهم.

أما عند الامامية فبقى الاجتهاد محملا بظلال المعنى القديم الى ان جاء المحقق الحلي (٦٧٦هـ) ونقح معناه وعرفه بأنه (بذل الجهد في استخراج الأحكام الشرعية، وبهذا الاعتبار يكون استخراج الاحكام من أدلة الشرع اجتهادا؛ لأنها تبتنى على اعتبارات نظرية ليست مستفادة من

---

[١] محمد بن علي الطيب أبو الحسين البَصْري المعتزلي: المعتمد في أصول الفقه: المحقق: خليل الميس ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ج٢ص٣٩٧.

[٢] الغزالي: أبي حامد محمد: المستصفى ، تحقيق: تصحيح: محمد عبد السلام عبد الشافي، ١٤١٧ – ١٩٩٦ م، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان: ٢٨١.

ظواهر النصوص في الأكثر..)[1]. فبعد هذا العرض لكلمة الاجتهاد التي مرّت بها نستطيع ان نخرج بتعريف استقر عليه أغلب الفقهاء وهو: هو بذل الجهد في استنباط الأحكام الشرعية من منابعها - وأهمها القرآن الكريم، والسنة . فهو لا يمثل الرأي الشخصي للفقيه وانما هو توظيف الأدوات والوسائل العلمية لاستنطاق النص والوقوف على أحكامه.

التجديد في الفقه .

الإسلام نظام متكامل فلا بد من ان يغطي جميع مرافق الحياة، والا كان الدين وقتي زائل لا يصلح لكل زمن، فكان الفقهاء على درجة عالية من الوعي وانتبهوا الى حاجة التجديد ان التجديد في الفقه حاجة ماسة وملحة؛ وذلك لانّ الوقائع المستحدثة تحتاج الى توصيف فقهي تكون ضمنه لما تقدم من ان لكل واقعة حكم شرعي، فتعقد الحياة وظهور المعاملات الحديثة والتطور الحاصل في جميع المرافق ادى الى حصول حركة تجديدية في الفقه حتى يغطي هذه المسائل وبيان الاحكام الشرعية لها، فمثلا ظهرت الى الساحة مسألة الاستنساخ البشري، واطفال الانابيب، والترقيع والتجميل وغيرها التي لم تكن في عهد المشرع، ولمواكبة مستجدّات العصر ظهرت بعض النظريات المطروحة لحلّ هذه المشكلات عن طريق إيجاد

---

[3] الحلي: نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن الهذلي: معارج الأصول، تحقيق: إعداد: محمد حسين الرضوي ، ط١-١٤٠٣، المطبعة: مطبعة سيد الشهداء (ع) - قم – ايران، الناشر: مؤسسة آل البيت (ع) للطباعة والنشر ١٧٩.

منهج ينظر بشكل مستجدّ إلى مفهوم الاستنباط وآلياته، وذكروا مجموعة من المناهج منها:

١. نظرية الأحكام الثانوية: وهي انها تكون في ضوء الاحكام الثانوية التي وضعها الشارع في حال الاضطرار وعدم استطاعة العبد الأحكام الأولى وهي التي شرعا اولا وأساسا لتلك الاحكام.
٢. نظرية الفراغ: وهذه النظرية تذهب الى أن الشريعة الإسلامية تركت للفقيه منطقة فارغة لمعالجة الامور المستحدثة على أن تعبير الفراغ لا يُراد به النقص وعدم الإحاطة والشمولية، بقدر ما يُراد به ترك فسحات تشريعية للمشرع (صانع القرار) ؛ حتى يملأها بما يراه ملائماً و الموضوع المطروح أمامه .
٣. حيثيات الزمان والمكان في استنباط الحكم الشرعي . يرى اصحاب هذه النظرية: (إنّ لعنصري الزمان والمكان دوراً حاسماً في الاجتهاد؛ فالمسألة التي كان لها سابقاً حكم خاص يُصبح لها حكمٌ جديد فيما لو وقع في ظلّ مجموعة من العلاقات الحاكمة على السياسة والاجتماع والاقتصاد في نظام ما، بمعنى أنّه بالمعرفة الدقيقة بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، يعلم أنّ الموضوع الحالي ـ الذي يبدو وكأنّه لا يختلف عن الموضوع الأول ـ هو موضوعٌ آخر، وتبعاً لذلك فهو يتطلّب حكماً جديداً). فبتغير الموضوع تتغير الاحكام لان الاحكام تابعة للموضوعات.

الفقه المقارن واثره في اثراء الساحة الفكرية:

يطلق الفقه المقارن ويراد منه أحد معنيين:

أحدهما: جمع الآراء المختلفة في المسائل الفقهية على صعيد واحد دون أجراء موازنة بينهما، وهذا لا يسمى مقارن لان طبيعة المقارنة تقتضي الترجيح وبيان الرأي الاقرب الى الواقع.

والأخر: جمع الآراء الفقهية المختلفة وتقيمها والموازنة بينهما بالتماس أدلتها وترجيح بعضها على بعض، وهذا الوجه ينطبق كثيرا على مفهوم المقارنة لما فيه من ترجيح .

فلذا نجد ان اكثر العلماء أختار المعنى الثاني حتى تظهر ثمرة المقارن .

الفرق بين الفقه المقارن والفقه الخلافي وما جهة الالتقاء:

جهة الالتقاء بينهما هي عرض آراء الفقهاء والموازنة بينهما.

ويفترقان في قربهما من الموضوعية في البحث وبعدهما عنها . إذ يعمل الخلافي على آراء مسبقة يراد له تقريرها وتعزيزها وهدم ما عداها، فوظيفته وظيفة جدلي لا يهمهُ الواقع بقدر ما يهمه انتصاره في مقام المجادلة والخصومة، فوظيفة كمحام يضع نفسه طرفاً في الدعوى للدفاع عمن يتوكل عنه ولا يهمه بعد ذلك أن يكون موكله قريباً من الواقع أو بعيداً عنه.

أما عمل المقارن فوظيفته وظيفة الحاكم يعد نفسه مسولاً عن فحص جميع الوثائق وتقييمها، والتماس أقربها للواقع تمهيداً لإصدار حكمه، ولا يهمه أن يتلقي ما ينتهي إليه مع ما لديه من مسبقات فقهيه، وربما عمد إلى تصحيح آراءه السابقة على ضوء ما ينتهي إليه .

موضوع الفقه المقارن:

يراد بالموضوع هنا ما يبحث في العلم عن عوارضه على اختلافها من ذاتية وغريبة . فموضوع الفقه المقارن – وهو الذي يجمع مسائله– هو: آراء المجتهدين في المسائل الفقهية من حيث تقييمها والموازنة بينهما وترجيح بعضها على بعض .

فوائد الفقه المقارن:

ذكر السيد محمد تقي الحكيم في كتابه الأصول العامة للفقه المقارن أبرز الفوائد ونحن قمنا بذكرها وهي:

أ. محاولة البلوغ إلى واقع الفقه الإسلامي من أيسر طرقه وأسلمها، وهي لا تتضح عادة إلا بعد عرض مختلف وجهات النظر فيها وتقييمها على أساس موضوعي.

ب. العمل على تطوير الدراسات الفقهية والأصولية والاستفادة من نتائج التلاقح الفكري في أوسع نطاق لتحقيق هذا الهدف.

ج. ثمارهُ في إشاعة الروح الرياضية بين الباحثين ومحاولة القضاء على مختلف النزعات العاطفية وإبعادها عن مجالات البحث العلمي .

د. تقريب شقة الخلاف بين المسلمين والحد من تأثير العوامل المفرقة التي كان من أهمها وأقواها جهل علماء بعض المذاهب الإسلامية بأسس و ركائز البعض الآخر . ما ترك المجال مفتوحا أمام تسرب الدعوات المغرضة في تشويه مفاهيم بعضهم والتقول عليهم بما لا يؤمنون به .

ثالثاً: علم الكلام.

التعريفات:

يرتبط علم الكلام بالفكر الإسلامي ارتباطاً وثيقاً؛ لأنه أول علم ظهر في الإسلام لمواجهة الشبهات التي دخلت في المجتمع الإسلامي من أهل الأديان والنحل الأخرى، ومثل علم الكلام الثقافة الإسلامية ودافع عن الدين وأثبت بالحجج العقلية العقيدة الإسلامية للمجتمعات التي لم تكن تعرف شيئاً عن الإسلام ومصادر الوحي وأولويات الدين التي جاء بها القرآن الكريم والرسول ﷺ، فهؤلاء لم يكونوا يعرفون الخطاب القرآني ولا الإسلامي وإنما كانوا يعترفون بالعقل والمنطق العقلي الفلسفي فتفرغ مجموعة من علماء الإسلام للرد على شبهات هؤلاء، والإجابة على تساؤلاتهم.

ويعرف علم الكلام التعريفات التي ساقها العلماء للتعريف بأصول الدين ويتداخل علم الكلام مع علم الفلسفة؛ لأنه عمل عقلي نظري ومساحته تغطي مساحة مسائل الفلسفة لذلك يعرفه

أبو نصر الفارابي: صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل، وهذا ينقسم إلى جزئين جزء في الآراء وجزء في الأفعال)[1]..

---

[1] تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، د. مصطفى عبد الرازق: ص٢٦٥ .

والآراء ما يمتحن بها العقل والأفعال ما يعمل به الإنسان بعد الاعتقاد والإيمان.

ويعرفه العلامة السمرقندي في الصحائف: لما كان علم الكلام نفسه يبحث عن ذات الله تعالى وصفاته وأسمائه، وعن أصول الممكنات والأنبياء والأولياء والأئمة والمطيعين والعاصين وغيرهم في الدنيا والآخرة، ويمتاز عن العلم الإلهي المشارك له في هذه الأبحاث فحدّه: إنه علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات في المبدأ والمعاد على قانون الإسلام)[1].

وقد واجه علم الكلام انتقادات شديدة من لدن علماء الشريعة والمشتغلين بالعلوم الشرعية بسبب طريقته في إثبات العقائد واهتمامه بالعقل والدليل العقلي، ولكن عند التحقيق نجد أن هذا العلم قدم خدمه لمقاصد الدين وأصوله في وجه موجة من التشكيك والشبهات التي أثارها المشككون ومن فتن بهم، وكذلك كانت حجة المعارضين له بأنه علم حادث وبدعة لم يقررها الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا أئمة الدين، وللحقيقة ان الجيل الأول مع الرسول الكريم ﷺ لصفاء عقيدتهم وبوجود النبي ﷺ وهيمنة القرآن الكريم على حياتهم وتمكنهم من السؤال المباشر للنبي ﷺ لم يكونوا بحاجة إلى الخوض في مثل هذا الميدان، وما نقل عن بعض العلماء في الطعن في علم الكلام ومنعه فإنما ينصرف إلى من استعمل هذا الكلام في

[1] الإمام الغزالي وعلم الكلام، سعيد عبد اللطيف فوده: ص١٦ .

الجدل والتشويش، ووظف العقل لمعارضة الدين والعقائد المقررة أما من استخدم هذا العلم للدفاع عن الدين فقد كان يقدم خدمة جليلة لنصرة الدين والعقيدة لذلك يقول عنه العلامة السمرقندي: إن أشرف العلوم وأعلاها منزلة هو العلم الإلهي الباحث بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة عن أحوال الألوهية وأسرار الربوية التي هي المطالب العليا والمقاصد القصوى من العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية، إذ بها يتوصل إلى معرفة ذات الله تعالى وصفاته وتصور صنعه ومصنوعاته.

وقد أكثر العلماء من وصف جليل هذا العلم الشريف حتى جعلوه في أعلى مرتبة من العلوم الإسلامية، وعلم الكلام استقر تعريفه على انه علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات في المبدأ والمعاد)[1].

وقد صرح الغزالي بأن علم الكلام هو أساس العلوم الإسلامية ورئيسها وذلك لشرف مباحثه المرتبطة بالاعتقاد بالألوهية والنبوة والامامة والمعاد.

وعلم الكلام لم يظهر بشكله النهائي فجأة وإنما استغرق ظهوره بحسب المصطلح مدة من الزمن تبلورت فيها المفاهيم واستقرت عندها المصطلحات، فهو كأي علم آخر أخذ مداه الزمني للظهور كما في اللغة

[1] ينظر: موقف الإمام الغزالي من علم الكلام، م. س: ص١٨ وما بعدها .

والعلوم الأخرى، وإن إعطاء اسم أو مصطلح لجملة من المعارف يأتي دائماً في مرحلة لاحقة، وينقسم علم الكلام على قسمين:

١. علم جليل الكلام: وهو العلم الذي يبحث في صفات الباري عز وجل وأفعاله وقدرته وعلمه وإرادته إلى جانب البحث في البعث والمعاد والنشور، وأفعال الإنسان والقضاء والقدر، والذي دعا العلماء إلى الخوض في هذه المسائل ما حصل من تصورات مستجدة بعد ظهور مشكلات الحكم الأموي وظهور مفاهيم كالإرجاء والجبر والقول بالإرجاء هو لمواجهة الخوارج الذين يقولون بالتكفير، والإرجاء يعني لا يكفر مرتكب المعاصي ويرجى النظر فيه إلى الله، وكان الإرجاء أحد الأسباب المهمة لظهور المعتزلة الذين واجهوا الإرجاء فكرياً لما كان الخوارج يمارسون العنف لمواجهة مخالفيهم وتبلورت في جليل الكلام آراء المذاهب والفرق الإسلامية، وتفرعت الأفكار وظهر الخلاف واضحاً في مسائله.

٢. دقيق الكلام: وهو العلم الذي تبلور ونضج لمواجهة أهل الملل والأديان الأخرى كالمانوية والسمنية والنصارى في عملية فكرية عقلية مستندة على النصوص الدينية فظهرت مباحث دقيق الكلام مثل المادة وصفاتها المتمثلة بمباحث الوجود وتحولات هذه المادة وتفاعلاتها

والحركة والسكون والمكان والزمان والوجود والعدم وغير ذلك من الصفات الطبيعية والظاهرية)[1].

وإن بداية علم الكلام والفلسفة وانطلاقهما يمكن أن نرجعه إلى ظهور الخلاف، كما يذكر ذلك الشهرستاني وتم تحديد هذا المفصل في الفكر الإسلامي في عهد أمير المؤمنين علي (عليه السلام).

ويقول الشهرستاني: انقسمت الاختلافات بعد ذلك إلى قسمين:

أحدهما: الاختلاف في الامامة وهو أعظم خلاف بين الأمة.

والثاني: الاختلاف في الأصول وحدث هذا الاختلاف في آخر أيام الصحابة ويربطه الشهرستاني بظهور القول بالقدر، ثم حدث بعدها ظهور الترجمة وظهور الفلسفة التي خلطت مناهجها بمناهج الكلام..

لقد ظهر الكلام إذن مع ظهور الخلاف ونضجت المقالات فارتفع إلى مستوى العلم، أي أصبح قابلاً للتصنيف والتبويب والعرض المنظم.. والحق إن علم الكلام صار علماً أوفنا باصطلاح القدماء مع المعتزلة فهم أرباب الكلام وأصحاب الجدل، والنظر والمفرقون بين علم السمع وعلم العقل.. وتاريخ علم الكلام منظوراً إليه من زاوية تطور بنائه الداخلي هو في الحقيقة والواقع تطور التفكير النظري في الإسلام، وكان الفقه الذي كان

---

[1] دقيق الكلام، د. محمد باسل الطائي: ص٢٩. ٣٠ .

مجاله هو العملي في مقابل علم الكلام النظري، تاريخ علم الكلام إذن هو تاريخ النظر في العقيدة)[1].

وبناء على تطور الفكر عن طريق النظر في الأدلة النقلية وعن طريق دخول الفلسفة والترجمة فإن جليل الكلام ودقيق الكلام مثل فكراً إسلامياً أصيلاً استناداً على قاعدة رصينة من دلالات النصوص وحركة النظر فيها، وإذا كان جليل الكلام عن عبر عن خلاف بمسار محفوف بالمخاطر والمجازفة بسبب مجاله المرتبط بالصفات والذات والمسائل الأصولية الكبيرة إلا إن دقيق الكلام عبر عن ثورة عقلية لدى علماء الإسلام بمذاهبهم كافة وتوحد الخطاب الكلامي في إثبات صفات الخالق عن طريق مخلوقاته، وإثبات واجب الوجود عن طريق ممكن الوجود الحادث وهو الوجود الحادث.

رابعاً: الفلسفة.

التمهيد:

تعد الفلسفة من أثرى فروع الفكر؛ لأنها تدرب على التفكير والنظر العميق، ودخلت الفلسفة في الفكر الإسلامي وحركة العقل أو النظر في النقل أو النصوص، والنظر في الوجود بعد الترجمة عندما قام بعض العلماء

[1] ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائدية الملة، ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد، مقدمة محمد عابد الجابري عن المقدمة: ص١٣.١٦ .

الذين على دراية باللغة اليونانية القديمة من أهل الديانة المسيحية هؤلاء قاموا بنقل علوم الأوائل أو الفلسفة، وعلوم الأوائل أطلق على كل العلوم القديمة السابقة للإسلام فنقلوا علوم الفلسفة إلى اللغة العربية، وعندما نقلت الفلسفة إلى العربية واجهت رفضاً من قبل علماء الشريعة؛ لأنها كانت غريبة عليهم لذلك صدرت فتاوى بتحريم النظر في كتب الأوائل، وعند التحقيق نجد أن عوامل عديدة كانت وراء مواجهة الفلسفة ورفضها منها فكرية ومنها سياسية، وتذكر المصادر ان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى سنة (٨٥هـ) كان أول من اشتغل في كتب الأوائل أو العلوم القديمة خاصة الكيمياء والطب والتنجيم، وجاء بالكتب من الإسكندرية إلى دمشق، وكان هدف الأمير الأموي الحصول عن طريق الكيمياء على المال عن طريق تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، ويبدو أن وراء هذا الهدف الحصول على المال لاستعادة حقه في الخلافة الذي حرمته منه عائلة عبد الملك بن مروان، واشتغل جابر بن حيان الكوفي في هذا العمل أيضاً، وكان هناك سبب فكري أيديولوجي وراء رفض الفقهاء لتحريمهم النظر في كتب الأوائل وهو توظيف جماعات من الغلاة علوم التنجيم والفلسفة لنصرة مذاهبهم الباطنية

وفرقهم الأمر الذي دفع باتجاه تحريم النظر في هذه الكتب[1].

---

[1] ينظر: فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من القتال، الفيلسوف أبو الوليد ابن رشد، مقدمة محمد عابد الجابري: ص١٢.

وبعد الاطلاع على الفلسفة والمنطق اليونانيين تبلورت اتجاهات فلسفية إسلامية على يد المعتزلة الذين برعوا في توظيف الفلسفة العقلية للانتصار لمبادئهم.

تعريف الفلسفة:

للفلسفة تعريفات عدة بحسب التصور والوظيفة والغاية من دراستها، فيعرفها افلاطون: (بأن الفلسفة حب الحكمة.. والحب شرط جوهري للتفلسف، والفيلسوف هو المحب الصادق الذي يعشق الجمال بالذات المطابق للخير بالذات.

وتطور التعريف بحسب التطورات الفكرية والثقافية للعلوم والمجتمعات، ففي مراحل نزول الأديان تغيرت النظرة إلى الفلسفة فحاول الفلاسفة الجمع بين الدين (النقل) والعقل والفلسفة وتحقيق المعنى على أن حقائق الوحي ليست إلا تعبيراً عن العقل ولا تعارض بين العقل (الحكمة) والدين (الشريعة)، ولذلك كتب ابن رشد فيلسوف المغرب الإسلامي كتابه (فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ليثبت بأن الدين والعقل متفقان.

ويعرف الفارابي الفيلسوف المسلم بأن الفلسفة: هي العلم (بالموجودات بما هي موجودة)، ويعتبر ان غاية الفلسفة هي المعرفة أو

معرفة الحقائق، وهي كما معلوم احدى غايات الدين في إعطاء المعارف للإنسان.

ويعرفها ابن سينا بأنها: استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة الإنسانية[1].

ومن متابعة تطور التعريف بالإمكان معرفة إن جوهر الفلسفة هو التفكر في المسائل المهمة والوصول إلى تصورات وتصديقات حاسمة ودقيقة بشأنها، وعند ذلك بعد تحقق المعرفة تتحقق السعادة في حركة الفكر وممارسة التفلسف، وتحقيق السعادة، وعلى هذا الأساس تطور التعريف حتى العصر الحديث، إذ يعرف فرنسيس بيكون العالم الإنكليزي والفيلسوف: بأن الفلسفة تقدم لنا تفسيراً ومعنى للكون عن طريق الملاحظة والتجربة وتكمن غايتها في السيطرة على قوى الطبيعة والتحكم في مواردها بغية تحقق سعادة الإنسان، وهي عند ديكارت

العلم بالمبادىء الأولى، أو العلم الكلي الشامل لتحقيق سعادة الإنسان)[2].

وعند التحقيق نجد أن الفكر الإسلامي قام على ثلاث دعائم:

---

[1] ينظر: مدخل إلى الفلسفة ومشكلاتها، د. حربي عباس ود. موزة محمد: ص٢٠ـ٢٤ .

[2] ينظر: المصدر نفسه: ص٢٠ـ٢٤ .

١. أصول الدين أو علم الكلام وهو الفضاء المعرفي والتطبيق العملي للفلسفة الإسلامية، ويرتبط بالمعارف الإسلامية وعلى الخصوص أكثر ارتباطاً بعلم أصول الفقه.
٢. الفلسفة والمنطق أو النظر العقلي في الأدلة والاستدلال على العقائد الإسلامية بالأدلة العقلية والمزج مع الفلسفة اليونانية وعلوم الأوائل.
٣. التصوف أو علم الأخلاق، وهو علم نشأ في المجتمع الإسلامي واستند إلى تعاليم الإسلام لكنه فيما بعد تأثر بالنظريات العرفانية والنزعة الروحانية لدى أهل الملل والديانات الأخرى.

أصالة الفلسفة الإسلامية:

أحدثت الفلسفة الإسلامية ردود أفعال عديدة حول أصالتها أو أنها استنساخ للفلسفة اليونانية:

فذهب بعض الباحثين ومؤرخي الفكر إلى أن المسلمين لم تكن لهم فلسفة خاصة بهم، واتهم العقلية الإسلامية بالسطحية وعدم قدرتها على التفلسف والتعمق في مشكلات الفكر، وقام المسلمون بنقل الفلسفة اليونانية بدون تعديل أو تحوير.

وذهب فريق آخر انها فلسفة عربية إسلامية تستند في حركتها على آيات القرآن الكريم، وأحاديث نبوية شريفة دعت إلى التفكر، وإن القرآن

الكريم أولى العقل رعاية خاصة جعلته في مستوى التلقي وتأسيس الفكر الإنساني المتطور.

وقد واجهت الفلسفة الإسلامية أو الفلسفة العربية موجة من الانتقادات الحادة منها على أساس عنصري يدعي بأن العرب جنس سامي لا يقدر على التحليل والتفكر بدقة، ومن هؤلاء الكونت جوبينو ورينان وجوتيه، ويذكر جوتيه (إن الروح السامية تمتاز بالوحدة والبساطة، أما الروح الآرية فإنها تمتاز بالكثرة أو التعدد والتعقيد، والساميون يعتنقون التوحيد المطلق الذي يتمشى مع فطرتهم الساذجة.. أما العقل الآري فهو عقل جمع ومزج وتركيب يربط الجزئيات في كل متناسق، والواقع ان هذه النظرية سببت يقظة لدى الشعوب الإسلامية وان الاستعمار الغربي كان يمثل إدانة واضحة للعقل الآري، كما يدعي أصحاب هذه النظرية التي تؤكد التحجر الجنسي والعنصري.. وكذلك فإن التطور العلمي أثبت بطلان دعوى العنصرية واستحالة وجود مجتمع نقي ذي خصائص ثابتة، وكذلك من القضايا الداحضة لهذه النظرية هي ان الغرب ميز بين الساميين، ونظر بازدواجية فحكم على العرب وعلى المسلمين بالتخلف واستثنى اليهود من هذه النظرة، بل تعامل بالعكس معهم، وهم بحسب نظرتهم كلهم ساميون)[1].

[1] ينظر: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، د. محمد علي أبو ريان: ص١٤ وما بعدها .

وهناك من أنكر الفلسفة الإسلامية على أساس ديني مُدعياً بأن القرآن وتعاليم النبي محمد ﷺ أعاقا الفكر وحجرا على المعرفة.

والفلسفة نشأت في بيئة إسلامية متفاعلة بين الدين الجديد الذي هو الإسلام والأديان والثقافات الأخرى وبدايتها سجلت عند شخصيات كانت مطلعة على أصول الثقافات السائدة مثل الثقافة الفارسية والفلسفة اليونانية، وعند تفاعلها مع المفاهيم الإسلامية أنتجت فكراً جديداً متنوعاً ومستوعباً للمتغيرات الفكرية لذلك كانت شخصيات مثل الجهم بن صفوان والجعد بن درهم وغيلان الدمشقي وغيرهم من رواد النظر العقلي قد اطلعت على هذه الألوان من الثقافات، وحاولت تكييفها مع العقائد الإسلامية والرؤية الإسلامية.

فقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست (عن غيلان الشعوبي ان أصله من الفرس، وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمنافرات منقطعاً إلى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون.. وهذا غير غيلان الدمشقي، وعن أخبار سهل بن هارون من أهل الحكمة الأوائل انه كان حكيماً فصيحاً شاعراً فارسي الأصل شديد العصبية على العرب)[1].

وبناء على ذلك كان هناك نوع من التنافر بين علماء الشريعة وعلماء الحكمة، وإن الاطلاع على ما أنتجه الفلاسفة المسلمون يؤكد ان هؤلاء أنتجوا فلسفة خاصة بهم مستمدة من الأصول الإسلامية تستحق أن يطلق

[1] ينظر: تاريخ الفلسفة الإسلامية، مصطفى عبد الرزاق: ص٥٩ .

عليها فلسفة إسلامية تجاوزوا فيها الفلسفة اليونانية القديمة، وأبدعوا في صياغة نظريات فلسفية جديدة تنتصر للعقيدة الإسلامية ومعطيات النصوص الدينية على الرغم من أن هؤلاء الفلاسفة كانوا قد اطلعوا على نتاجات الفلاسفة اليونانيين ومعلميهم الأوائل، فقد نقلت إليهم فلسفة اليونان والفرس والهند، فظهرت آثار هذه الفلسفات في فكرهم إلا ان الغالب على هوية هذه الفلسفة هو الهوية الإسلامية، وقد تطورت الفلسفة الإسلامية على يد علماء الكلام الذين وظفوا العقل والمنطق للاستدلال على العقيدة الإسلامية وبالإضافة إلى ذلك فإنهم قدموا رؤية جديدة للنصوص الدينية تعطي حركة فكرية عقلية ولم يتوقفوا عند ظاهر النص وأثروا الفكر الإسلامي بالحجج المنطقية التي تؤكد بأن العلم الخالص لن يتعارض مع الدين الخالص، بل ان البحث العلمي في رحلة العقل والملاحظة سوف يعزز الإيمان بالله ويمنح أصحابه ثقة بدينهم ويقربهم إلى ربهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[1]، والراجح في دلالة لفظة العلماء هنا هم علماء الطبيعيات والعلوم التي تربط بين قراءة الكون وقراءة القرآن، كما ذكر ذلك الكثير من علماء الإسلام.

[1] سورة فاطر: من الآية (٢٨).

خامساً: التصوف.

التمهيد:

يعد التصوف من العلوم المهمة في بنية الفكر الإسلامي لان التصوف هو في حقيقته علم الأخلاق، كما يعرفه الشريف الجرجاني بأنه: (الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطناً فيرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال.. كما يعرفه ابن خلدون في المقدمة: رعاية حسن الأدب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة بالوقوف عند حدوده مقدماً الاهتمام بأفعال القلوب ومراقباً خفاياها حريصاً على النجاة)[1]، وإذا كان التصوف يرتبط بعلم الأخلاق فإنه يشكل فرعاً من فروع المعرفة الإسلامية أو الفلسفة، كما يقسمها علماء المعرفة وبالإمكان تفصيل ذلك بما يأتي:

١. علم الكلام يقابل علم اللاهوت أو الإلهيات وفي الفلسفة الجانب المعرفي النظري الابستمولوجي.
٢. علم التصوف يقابل علم الأخلاق أو علم القيم الاكسيولوجي.

وكان التصوف في بدايته يعبر عن الاتجاه التربوي الأخلاقي في الإسلام ويستند في تعاليمه وبرنامجه على آيات القرآن الكريم وتوجيهات النبي (ﷺ) وعبر عن روح تعاليم الدين الإسلامي في إحياء الضمير ومراقبة

---

[1] التصوف والعرفان الإسلامي، د. ياسين حسين الويسي: ص٤ .

الله في كل عمل، ولكنه بعد دخول المفاهيم الاشراقية أي التأملية والروحانيات والأفكار التي تعبر عن الفلسفة الهندية والشرقية في تصورها للحياة والروح والإنسان تحولت دلالة المصطلح إلى اتجاه أوغل في الروحانيات على حساب الواقع والنظرة الواقعية الإسلامية، ولم يكن التصوف في بدايته يحمل اسماً اصطلاحياً، وإنما كان تعالياً تربوية تعزز عن تهذيب الإنسان ورصيده الأخلاقي، وكما قالوا: كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له، ثم أصبح اليوم اسماً لا مسمى له.. وبعد الجيل الأول تم الاصطلاح على المسمى وهو أمر لا عهد للمسلمين به وإنما عدوا هذا المنهج التربوي هو المدخل الذي لابد منه لسائر أنواع الصلاح الفردي والاجتماعي غير ان الاهتمام بالاسم الجديد تغلب شيئاً فشيئاً على الاهتمام بالمسمى القديم.. ثم جاء من بعد هؤلاء خلق آخر غدت كلمة التصوف عندهم أشبه بقبة ليس في داخلها مزار.. ولكن للحق لا يزال في المتصوفة من هم على سنن الرعيل الأول)[1].

وفي الإسلام والقرآن تحديداً دعوة صريحة للتفاعل الروحي ومراقبة النفس وإصلاحها، وإن المهمة الأولى للإنسان هي التزكية أو تزكية نفسه وتخليصها من التصورات والنزعات المادية والشهوات، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ

[1] الإدراك الروحي بين التصوف والنورسي، مجموعة باحثين، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص ٦٠٥.

وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[1]، وهناك أحاديث كثيرة تدعو إلى عزلة الفتن والمفاسد وتطهير النفس بالترقي بالعبادات، ولعل أهم من ذلك الترقي بالعلم والفكر، ولذلك مارس التصوف والزهد أكثر علماء الإسلام من جيل الصحابة والتابعين وأئمة أهل البيت (عليهم السلام)، فقد كانوا النماذج التي يحتذى بها في الزهد في الدنيا والابتعاد عن ملذاتها وارتبط بالتصوف علماء من كل مذاهب الإسلام.

فكان فيهم من الأشاعرة والمعتزلة والفلاسفة والامامية وغيرهم من فرق المسلمين.

تعريف التصوف والعرفان:

تطورت ممارسة التصوف من العفوية والتلقائية المستجيبة لتعاليم الإسلام إلى برنامج له أصوله وطرقه يعتمد على العلوم العرفانية، والعرفان يعرفه ابن سينا (ت٤٢٨هـ): (بأنه مبتدئ تفريق ونقض وترك ورفض ممن في جمع)[2]، وهو تعريف يشمل التركيز على الذات وتمييزها عن غيرها لعدم الغفلة ورفض نسيان الذات ومراقبتها وتحصين النفس في طريق التزكية، وكذلك يعرفه السيد الطباطبائي: (بأنه إدراك بعلم سابق أو ارتقاء على علم سابق.. ويعرفه الشهيد مطهري: هو علم السير والسلوك، فهو عبارة عن

---

[1] سورة الشمس: الآيات (٧. ١٠) .

[2] التصوف والعرفان الإسلامي / م. س: ص٩ .

علاقة الإنسان وواجباته تجاه نفسه والكون وخالقه.. وهو بيان البداية التي ينبغي للسالك أن يخطوها للوصول إلى التوحيد ولابد للسالك أن يسلك جميع هذه المراحل بإشراف إنسان متكامل قد سلك بدوره هذا الطريق وتعرف على تلك المنازل يطلق عليهم العرفاء)[1]، وقد يتداخل أو يشترك التصوف مع العرفان، ولكن المعروف أن التصوف يرتبط بالسلوك الروحي والتربية الروحية للسالكين أما العرفان فيرتبط بالحكمة والمعرفة العقلية والفلسفة ويعرف التصوف في الاصطلاح:

وذهب الكثير من الفلاسفة إلى اتجاهات روحية للتعبير عن اللذة والسعادة وهي المعاني التي يعالجها التصوف كما تعالجها الفلسفة في النظر وحركة الفكر لذلك نرى أن ابن سينا يذهب إلى أن اللذة الباطنية العقلية أعظم من اللذة الحسية وما اللذة سوى نيل الخير المناسب لكمالنا ذلك الخير الذي يشتمل عليه المعقول، وقد أشار البعض إلى أن ابن سينا لم يكن كالفارابي ممارساً للتجربة الصوفية، بل كان دارساً لها فحسب)[2].

ويمر السالك في طريق التصوف بمراحل ويترقى بالدرجات، وقد كتب الكثير في درجات الترقي الصوفي وحتى إن ابن القيم كتب مدارج السالكين بين منزلة إياك نعبد وإياك نستعين لمعارضة كتاب الزاهد الصوفي الهروي (منازل السائرين)، وفي أكثر من موضع كان يرد عليه ولكن

---

[1] التصوف والعرفان الإسلامي / م. س: ص ١٠ .

[2] تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام / م. س: ص٣٢٩ .

بأسلوب يراعي فيه الاتجاه الصوفي المستند على التأصيل الشرعي الذي حاول أن يحققه الهروي في كتابه منازل السائرين ولكن ابن القيم كذلك حاول أن يثبت بأن الاكتفاء بالطريق الذي يتبع فيه النصوص أسلم.

ويميز ابن سينا بين الزاهد والعابد والعارف وهي أحوال يمر بها السالكون، فالزاهد هو المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها أما العابد فهو المواظب على العبادات المطيع لأوامر الشارع.. أما العارف فهو المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سره.. وعبادته ليست عن رهبة أو معاملة ثمرتها الثواب، بل هي رياضة وإيثار للحق الأول ذاته وعشقاً لها.. ويعرض ابن سينا لمراحل الطريق الصوفي في رسالة سلامان وابسال فيذكر ان أول درجات العارف هي الإرادة ويسمى في هذه الحالة مريداً ثم يصير إلى حال الوقت ويزداد حصول الاشراقات له فيصل إلى السكينة وتحصل له ملكة مشاهدة الأنوار العليا حتى يشاهد ذاته وحين يشاهدها يكون مشاهداً لله، وهذا هو حال حصول الوصول أو (الوحدة التامة) فحين ذلك يرى بعين الألوهية ويسمع بسمعها ويفعل بقدرة فلا يكون ثمة تمييز بين العارف وموضوع المعرفة أو بين الباحث عن الحق والحق نفسه وهذا هو حال الوقوف)[1]، وكما هو معروف بأن التطور الذي حصل للتصوف في مجال العرفان والأحوال كان يستمد أصالته من النصوص الشرعية والشواهد من السيرة والسنة النبوية المشرفة، وإن التصوف في

[1] تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام / م. س: ص٣٣٠ .

بدايته كان واضحاً وبسيطاً في اتجاهاته السلوكية والتربوية ثم تطور إلى مدارس صوفية لكل منها مواصفاته الخاصة بالتربية والسلوك وأهم هذه المدارس هي:

المدارس السلوكية:

أ. مدرسة الزهد التي كانت تعبر عن ردة فعل المجتمع الإسلامي تجاه الدنيا ومغرياتها التي انفتحت على المسلمين بعد الفتوحات ودخول الأمم في الإسلام، وشكلت هذه المدرسة الأساس الذي قام عليه التصوف في جميع أدواره وأهم ملامحها هي العبادة والنسك والتقشف واتباع السلف الصالح والمحبة والإخلاص والمجاهدة والتمسك بأحكام الشريعة.. وعلى رأس هذه المدرسة كان الحسن البصري (ت١١٠هـ).

ب. مدرسة الذوق والمعرفة: وهي المرحلة التالية للزهد في التصوف وتقوم على أساس الذوق والرياضة الروحية ومراحل النفس وغيرها من الممارسات الروحية وتزعمها أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، وقامت على أساس أن المنطق العقلي والمعرفة العقلية لا تكفي في الوصول إلى حقائق الوصول والإيمان بالله تعالى.

ج . مدرسة الكشف والتجليات: وهي المدرسة التي وصلت إلى أعلى مراحل الرياضة الروحية، وتبلورت فيها وحدة الوجود أو وحدة الشهود، وقامت هذه المدرسة على أساس الكشف مع أحوال أخرى

مثل الوجد والصعق والسكر، وأبرز شخصيات هذه المدرسة ابن عربي (ت٦٨٣هـ)، وابن الفارض (ت٦٧٦هـ)، وتميزت هذه المدرسة بغموض المعاني والألفاظ الإشارية.

المدارس الصوفية من حيث التقسيم المكاني:

أ. مدرسة المدينة: على رأسها سعيد بن المسيب (ت٩٤هـ).

ب. مدرسة البصرة: وكانت البصرة مركز المعرفة والزهد والفلسفة، ومن أبرز شخصياتها بعد الحسن البصري مالك بن دينار (ت١٣١هـ)، وثابت البناني وأيوب السختياني.

ج. مدرسة الكوفة: وأبرز رجالها سعيد بن جبير (ت٩٥هـ) قتله الحجاج الثقفي، وكذلك ابن السماك والأعمش.

د. مدرسة بغداد: انتقل التصوف إلى بغداد بعد البصرة وكذلك باقي العلوم العقلية بعد أن ضعف دور البصرة، وأبرز شخصيات هذه المدرسة الحارث المحاسبي (ت٢٤٣هـ).

هـ. مدرسة نيسابور: ومن أبرز رجالها أبو حفص الحداد وحمدون القصار ولها سمات في الأحوال والسلوك يختلف عن المدرسة البغدادية.

و. مدرسة مصر والشام: كانت هذه المدرسة آخر مدرسة أمدت المغرب العربي في نظريات التصوف، وأشهر رجالها ذنون المصري

(ت٢٤٥هـ)، وكان في مصر، أما في الشام فكان سليمان الداراني (ت٢١٥هـ)، وأغلب كلام هؤلاء في العزوف عن الدنيا وملذاتها[١].

وركز ابن خلدون عناصر التصوف في أربعة وهي: المجاهدات والاذواق والمواجيد ثم الكلام في الكشف عن عالم الغيب والكرامات والشطحات[٢].

وكان التصوف يعبر عن شعور داخلي في البحث عن الإيمان وحقائق الدين وإدراك أهل التصوف بأن الدين يحتاج إلى رصيد من الشعور الداخلي والطمأنينة أكثر من القناعة العقلية وإن كان الإيمان هو في حقيقته أمر أكثر من مجرد الشعور فهو يشبه رضا النفس عن علم ومعرفة، ولذلك لم يجد علماء التصوف ضالتهم في الفلسفة والعمل العقلي، فلجأوا إلى الرياضة الروحية وطريق التصوف فكان تجلي اللانهائي عن طريق الوعي الصوفي هو الذي أقنع الغزالي بتناهي العقل وعجزه عن الوصول إلى أحكام جازمة.. وإن هدف القرآن هو أن يوقظ في نفس الإنسان شعوراً أسمى بما بينه وبين الخالق وبين الكون من علاقات متعددة.. وعلى هذا فإن توكيد الروح الذي سعت إليه النصرانية يتحقق لا باستبعاد القوى الخارجية التي تخترقها الأنوار، وإنما يتحقق بتنظيم علاقة الإنسان بهذه القوى على هدي النور

---

[١] ينظر: التصوف والعرفان الإسلامي، د. ياسين الريسي: ص١٦.١٨ .

[٢] الفرق والمذاهب الإسلامية، سعد رستم: ص١٧٨ .

المنبعث في العالم الموجود في أعماق النفس)[1]، وعلى هذا الأساس ان التجربة الصوفية عبرت عن قضية استحالة وصول العقل بعجزه إلى إدراك المطلق فلجأت إلى الرياضة الروحية لتعيش حالات الذوق والكشف التي لا يمكن تحقيقها عن طريق المعرفة المجردة.

[1] تجديد التفكير الديني، محمد اقبال، ترجمة عباس محمود: ص٥٣. ٥٤ .

المبحث الثاني: المدارس الكلامية والفرق وأثرها في حركة الفكر الاسلامي.

المعروف ان علم الكلام نشأ في أحضان الفرق واتجاهاتها التي تبلورت بسبب الاختلافات في التطبيق للنصوص الدينية ودلالتها، وبسبب تطور الحياة الثقافية للمجتمع المسلم، وقد يكون هناك سبب ثالث وهو الخلاف السياسي حول الامامة الذي كان أول الخلافات بعد وفاة الرسول ﷺ ويجمع كتاب مقالات الفرق الإسلامية على ان النظر العقلي في العقائد الدينية بدأ في الإسلام على أيدي المعتزلة وأسلافهم القدرية والجهمية، وفي ذلك يقول طاش كبرى زاد: اعلم ان مبدأ شيوع الكلام كان على أيدي المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة، ويقول ابن نباته المصري كان الجعد بن درهم أول من تكلم في خلق القرآن من أمة محمد ﷺ بدمشق ثم طلب فهرب ثم نزل الكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان القول الذي ينسب إلى الجهمية.

ويقول الخياط المعتزلي: إن المعتزلة أرباب النظر دون جميع الناس، وإن الكلام لهم دون سواهم.. وبالإمكان استنتاج مجموعة من الحقائق المهمة من النصوص أعلاه وهي:

١. إن النظر العقلي في العقائد بدأ على أيدي الجهمية والقدرية والمعتزلة، وكان ذلك نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة.

٢. إن أهم مسألتين سببتا الخلاف والنظر هما مشكلتا الصفات الإلهية ومسألة القدر في مجال الفكر أما في مجال السياسة فكانت الإمامة هي أولى المسائل التي أثارت الخلاف بين علماء الإسلام.

٣. إن الذين بحثوا في هذه المسائل كانوا من الموالي وهم المسلمون الجدد الذين تركوا دياناتهم القديمة واعتنقوا الإسلام أي من أصحاب العقليات المركبة التي تستطيع النفوذ إلى أعمق المسائل الدينية والفلسفية والمتمرسين على طريق الاستدلال النظري[١].

ويذكر النوبختي وهو مؤرخ لفرق الشيعة بأن فرق الأمة كلها المتشيعة وغيرها اختلفت في الامامة في كل عصر، ووقت كل إمام بعد وفاته وفي عصر حياته منذ أن قبض الله محمد ﷺ[٢].

يتضح مما سبق بأن الفرق والاختلاف نشأ لأسباب عدة داخلية وخارجية، ولعل أهم الأسباب هي:

أ. الداخلية:

١. السياسية: وهي الاختلاف حول الامامة.

٢. الفكرية: وهي النظر في المشكلات العقلية تجاه التكليف مثل حرية الإرادة والقضاء والقدر.

---

[١] دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، د. عرفان عبد الحميد: ص١٢٩. ١٣٠ .

[٢] فرق الشيعة، أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي من أعلام القرن الثالث الهجري، تعليق: العلامة محمد صادق بحر العلوم: ص٢٢ .

٣. النصوص الدينية ودلالتها فإن دلالة النص الديني تختلف من شخص إلى آخر اعتماداً على ثقافته وخلفيته وبيئته، ويضاف إلى ذلك ان النص الديني يمتاز بعمق الدلالة ومرونة الاستيعاب للمتغيرات لذلك نقل عن الإمام علي (عليه السلام) (القرآن حمال أوجه) أو قوله: (إن المصحف لا ينطق وإنما تنطقه الرجال) في إشارة إلى تنوع الفهم لدلالة النص الواحد.[١]

وكذلك هناك نصوص محكمة ونصوص متشابهة والمتشابه كان سبباً في بلورة اتجاهات التأويل.

٤. النفسية: إذ يوجد بعض الناس يحمل قلقاً تجاه المعرفة ولا يقتنع بالمعنى الظاهر المتبادر، وإنما يجنح باتجاه التأويل والتطرف والغلو، ويبحث عن مداخل ملتوية وينفلت من دائرة البيان الواضح بالاتجاه العملي إلى دائرة الغموض والتنطع، وقد حذرت أحاديث كثيرة من التكلف والتنطع وكثرة السؤال.

ب. الخارجية: أهم الأسباب الخارجية هي:

١. الديانات الأخرى والفلسفات التي كان يؤمن بها بعض ممن دخل الإسلام منهم وأخذوا يقيسون المفاهيم الإسلامية على خزينهم المعرفي.

---

[١] الراوية في نهج البلاغة ج٤، ص١٠٤، وكذلك في الطبري في تاريخ الامم والملوك: ج٣، ص١١٠، عن الموسوعة الشاملة.

٢. الكذب والانتحال في الروايات ودس بعض المفاهيم المنحرفة، وهو من المشكلات الكبيرة التي واجهت المسلمين ابتداءً من الأحاديث الموضوعة إلى الروايات التاريخية المكذوبة إلى الإسرائيليات في التفسير والمنحول من كتب الفلاسفة الأوائل التي دسها بعض أعداء الدين الجديد من أهل الديانات الأخرى للتشويش وإثارة المشكلات الفكرية.

وبناء على ذلك يرى معظم المستشرقين ومنهم فون كريمر، نيكلسون، بيكر ماكس ومكدونالد وآخرون إن مسألة القضاء والقدر والصفات الإلهية ظهرت في الإسلام بتأثير تعاليم الكنيسة المسيحية ونفوذ أساتذتها المتكلمين أمثال القديس يوحنا الدمشقي وتلميذه تيودور أبو قرة.

ويذهب هذا المذهب بعض علماء الإسلام مثل ابن حزم والشهرستاني والبغدادي، ويرى آخرون وخاصة فنسنك، واط، ترنون، والمرحوم مصطفى عبد الرزاق إن الخلاف العقيدي والجدل الديني نشأ بسبب من تعاليم الإسلام ذاته وكنتيجة للتطور السياسي والاجتماعي للجماعة الإسلامية نفسها)[1].

يتضح مما سبق بأن الفرق الإسلامية أو المدارس الكلامية كانت نتيجة عوامل داخلية وخارجية لكن العامل المشترك فيما بينها بأنها كانت تدعي بأنها تعبر عن مفاهيم إسلامية سواء كانت جديدة جاء بها الإسلام، أم انها

[1] دراسات في الفرق / م.س: ص١٣١ .

كانت لدى الأمم الأخرى والديانات الأخرى ولكن الرواد من مؤسسي الفرق وضعوا لها إطاراً إسلامياً، واستطاعوا أن يربطوا بين الأفكار القادمة أو الواردة وبين مبادىء الإسلام، ويكيفوا هذه المفاهيم والأفكار مع العقائد والمفاهيم الإسلامية، وكان المخلصون من هؤلاء صادقين في محاولتهم عندما كانوا يحاولون الدفاع عن المفاهيم والعقائد الإسلامية وعلى هذا يصرح ابن رشد في الاعتذار عن الاختلاف في دلالة الألفاظ والآيات المشكلة أو المتشابهة فيقول: (ويشبه أن يكون المختلفون في تأويل هذه المسائل العويصة إما مصيبين مأجورين وإما مخطئين معذورين..

فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له إذا كان من أهل العلم معذور ولذلك قال (صلى الله عليه وسلم): إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر (رواه أبو داود).. وأما الخطأ من غير العلماء فهو إثم محض وسواء كان الخطأ في الأمور النظرية أو العملية .. وبالجملة فالخطأ في الشرع على جزئين، أما خطأ يعذر فيه من هو من أهل النظر.. كما يعذر الطبيب الماهر إذا أخطأ في صناعة الطب، والحاكم الماهر إذا أخطأ في الحكم.. وأما خطأ ليس يعذر فيه أحد من الناس مثل معرفة ذلك الشيء بهذه الجهة ممكنة للجميع مثل الإقرار بالله تعالى وبالنبوات وبالجزاء الأخروي، وهذه الأصناف الثلاثة التي لا يعرى أحد من الناس عن وقوع التصديق بها، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: (أمرت أن أقاتل الناس

حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي) (رواه مسلم) يريد بأي طريق اتفق لهم)[1].

وقد صرح أهل العلم بأن هذه الفرق داخله في أمة الإسلام إذا آمنت بالله تعالى، والنبي ﷺ واليوم الآخر فإذا اختلفت في باقي الأصول في الكيفيات والفهم فيتركون على نيتهم وحسابهم على الله،

وأكثر من وقع في الإنكار هم من انحاز إلى معيارية عالية جعلته يعتقد بأن المخالف ضال وكافر، وإذا لم يؤمن بما آمن به هو فإنه كافر وقضية التكفير من أخطر الأمراض التي ابتليت بها الأمة وظهرت مع الخوارج، كما تحدثنا سابقاً ولذلك يذكر المفكر الإسلامي على شريعتي: إنك إن تسعى جاهداً لإنقاذ نفسك من النار خير لك من أن تسعى جاهداً لإثبات خطأ مخالفك أو انه في النار[2] وهذا كلام حق، ولما كانت ظاهرة الفرق من الظواهر الفكرية الطبيعية في حياة البشر ولا سبيل الى تجاوزها بسبب الاختلافات الطبيعية في الفهم والفطرة والاستعدادات العقلية، وكذلك الثقافة ومستوى الإيمان، وإن الله خلق البشر مختلفين ولا يمكن بحال أن نجد مجموعة بشرية متفقة تمام الاتفاق، وإن اسباب الاختلاف كثيرة وإن المسلم مطالب بتقبل الخلاف والتعايش معه والابتعاد عن اهدار الجهود والطاقات في جدل وردت الأحاديث الكثيرة والآيات الدالة على كراهية

---

[1] ينظر: فصل المقال / م. س: ص١٠٥ وما بعدها .

[2] ينظر: الاعمال الكاملة لعلي شريعتي. فقد جاء عن علي شريعتي معنى هذا الكلام.

الخوض فيه ولا سبيل إلى الاتفاق على حقائق الدين إلا عن طريق الوحي، فوجب أن نكيف واقعنا للاعتراف بالتعدد الفكري، وهذه الحالة عاش عليها أكثر العلماء من أمة الإسلام في القرون الأولى، فكانوا يتعايشون ويتواصلون ويعقدون الحوارات واللقاءات الفكرية، ويستدلون على مذاهبهم بالأدلة العقلية والنقلية، ولم ينقل ان خلافاً أدى إلى صراع أو أعمال عنف سوى ما نقل عن الخوارج اللذين لجأوا إلى السيف.

وبسبب الاتجاهات الفكرية نشأت ظاهرة التأويل للخروج من مشكلة التعارض بين العقل والنقل.

ظاهرة التأويل:

وهو قانون فكري يعرف بأنه إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الظاهرية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعاده لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهة أو بسببه أو لاحقه مقارنة أو غير ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي)[1].

والتأويل ظاهرة طبيعية مارسها أهل الديانات السماوية السابقة في تداولهم للنصوص المنزلة على أنبيائهم، ففي اليهودية ارتبط التأويل باسم فايلو الإسكندراني (٢٠ ق. م ـ ٥٠م) الذي حاول إبعاد التجسيم الذي يؤدي إليه التفسير الحرفي لبعض نصوص التوراة، وقد حمل فايلو حملة

[1] دراسات في الفرق، د. عرفان / م. س: ص٢٠٥ .

شعواء على أولئك الذين يتمسكون بالحرفية والظاهر في تفسير النصوص.. وسار على نهجه عدد من لاهوتي اليهود في العصور الإسلامية مثل سعدايا الفيومي صاحب كتاب الأمانات والاعتقادات وآخرون..

وفي المسيحية ظهر عدد من كبار آباء الكنيسة حاولوا إبعاد التجسيم عن الله تعالى، وذلك بإيجاد تأويلات مجازية للنصوص الدينية، ومن هؤلاء كليمانت الاسكندراني (١٥٠م-٢١٥م)، والقديس أوغسطين (ت٤٣٠م)، ويوحنا الدمشقي (٧٥٤م)، ويعد أكبر لاهوتي في الكنيسة الشرقية، وقد أفرد فصلاً كاملاً في كتابه المشهور (حول الدين الأرثوذكسي) للتأويلات المجازية في الصفات الخبرية التي ترد في الكتاب المقدس، أما في الإسلام فإن التأويل كمنهج عقلي يرتبط بالمعتزلة الذين أيقنوا بأن التصورات والأحوال التي لا تتفق مع طبيعة الإلوهية لا يكون إلا عن طريق تأويلها مجازياً.. فقد وجدوا في القرآن الكريم والحديث النبوي نصوصاً إذا أخذت حرفياً أدت إلى التشبيه والتجسيم، وإذ ثبت عندهم بالدليل العقلي ان الله تعالى منزه عن الجسمية والجهة قالوا لابد من صرف هذه الصفات عن معانيها الظاهرية الحرفية إلى معان أخرى مجازية.. واستعانوا بنصوص قرآنية في آيات أخرى وباللغة التي يجدون فيها ما يساعدهم في تقرير المعاني التي يرونها وقبل المعتزلة مارس التأويل جماعة من رجال السلف مثل مجاهد المكي (١٠٢هـ)، وعطية الكوفي.. ورغم ما في التأويل الاعتزالي أحياناً من تعسف وافراط فإن العمل الذي بدأوه كان السلاح الوحيد للقضاء على

التشبيه والمشبهة، وقد أخذ به مع تعديلات طفيفة عامة المسلمين من شيعة وسنة ماتريدية وأشعرية، وفي ذلك يقول الإمام الرازي: جميع فرق الإسلام مقرون بأنه لابد من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار)[1]. ونقلت روايات عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، فيها اشارات الى قبول التأويل في فهم بعض النصوص الموهمة بالتشبيه بين الخالق والمخلوقين، وقد وردت عن الامام الصادق (عليه السلام)، تأويل وجه الله بانه الوجه الذي يؤتى منه[2]. أي جهة الدعاء وكذلك نقلت روايات عن الائمة (عليه السلام)، بان من قال بتشبيه الخالق بالمخلوق فهو مشرك.

وقد ألّف الرازي كتابه أساس التقديس للدفاع وتبرير التأويل وجواز التأويل يستند إلى قيام البرهان على استحالة الظاهر، واشترطوا أن يكون المعنى الظاهر يؤدي بحرفه إلى التجسيم، وقام الدليل العقلي على بطلانه وان لا يهدم التأويل أساساً من أسس الشريعة وان تتحمله اللغة العربية.

ولكن التأويل قد يؤدي إلى ضياع الكثير من حقائق الدين وتعطيل فاعلية وأثر النصوص الدينية بسبب تداوله في غير محله ومن غير أهله، لذلك اشترط العلماء لممارسته ما ذكرنا وكذلك منعوا التأويل بين فئة العوام، وقللوا من الخوض في التأويلات المجازية وامتنعوا من صرف الظواهر إلا

---

[1] ينظر: دراسات في الفرق / م. س: ص٢٠١ وما بعدها .

[2] الاعتقادات، للصدوق/ ابو جعفر علي بن الحسين القمي (ت٣٨١هـ)، تحقيق: مؤسسة الامام الهادي/ ص٤٣ من النص المحقق.

بقدر وحذر، ولذلك ألّف الغزالي كتابه المعروف الجام العوام عن علم الكلام، وفي بعض كتبه الأخرى مثل الاقتصاد في الاعتقاد يحذر من التوسع في إشاعة ثقافة التأويل ولهذا السبب ازدادت الاستقطابات بين الفرق، وحدثت خصومات وتفرق الكثير بسبب هذه الاختلافات في الفكر ولابد أن نقرر إن الفرق الإسلامية اختلفت لسببين سبب فكري وسبب سياسي، السبب الفكري هو الخلاف في الاستدلال وفهم معنى مراد النص أو الوحي، والسبب السياسي الذي تبلور حول الامامة واستحقاقاتها وهذه الأسباب أفرزت نوعين من المدارس الفكرية وقد سبق أن درسناها ولكن بالامكان تركيزها بما يأتي:

١. أهل السنة وتبلورت في عدة اتجاهات أو فرق أو مدارس منهم: الأشاعرة ـ الحنابلة ـ الماتريدية ـ المعتزلة ـ وأكثر هذه الفرق المنتمية لمدرسة أهل السنة ضعفت واندرست ولم يتبق إلا الأشاعرة والحنابلة، وإن كانت آثار بعض هذه الفرق لازالت موجودة.

٢. الشيعة: الامامية الاثني عشرية أتباع اثني عشر اماماً من نسل الإمام الحسين (عليه السلام).

الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين (عليه السلام).

الإسماعيلية أتباع إسماعيل بن محمد بن جعفر (عليه السلام).

وأكثر فرق الشيعة ضعفت أيضاً وبعضها اندرس وبقي الامامية والزيدية هم غالب الشيعة.

٣. فرق غالية ومتطرفة من المدرستين، وهؤلاء تشكلوا ضمن أقليات منغلقة باطنية لا تصرح بمعتقداتها للعامة أمثال بعض فرق الصوفية والدروز والكيسانية وغيرهم.

نستنتج مما سبق بأن الخلاف الفكري صدر من علماء الفرق الذين تأولوا النصوص، وكذلك أدت بعض الأحداث إلى اتخاذ مواقف وتطرف وحمل السلاح بوجه بعضهم البعض ولذلك نرى ان الخلاف لا يمكن إلغاؤه ولكن يمكن التعايش معه والانطلاق في بناء حضاري يحركه التكامل المعرفي والتسامح.

خلاصة الفكر في موقف المدارس الإسلامية الكبرى بالإمكان وضعها في علاقة فكرية كما يأتي:

١. إن الخلاف بين أهل السنة والشيعة إنما هو خلاف في جوهره متعلق بمشكلة سياسية، وقد اتخذ طابعاً عقائدياً؛ لأن السياسة لا تنفصل عن الدين في الفكر الإسلامي، فالخلاف لا يدخل في تفاصيل الإيمان بالله ولا بالنبي ﷺ ولا في اليوم الآخر وهي الأصول المشتركة لجميع الفرق والمدارس الإسلامية.

٢. إذا اعتبر الشيعة الامامة من أصول الدين فذلك يعني إنها لدى أغلب فرقهم أحكام إلهية، وإذا اعتبرها أهل السنة من الفروع فما ذاك إلا لأن السياسة من الرسول ﷺ لم تكن غاية في ذاتها وإنما وسيلة لنشر الدين

وعقائد الإسلام بحسب تفسير أهل السنة للامامة أو النظام السياسي بعد النبوة.

٣. إذا كانت نظريات فلسفة السياسة تبحث في أصلح نظام في الحكم فإن إجابة الشيعة هو الحكم الإلهي، وإجابة أهل السنة مع شيء من التجاوز انها الشورى أو ما يسمى بالمصطلح السياسي الحديث الديمقراطية، ولكن لابد أن نقرر بأن طبيعة هذا الحكم الإلهي ستعود إلى الاجتهاد والفكر البشري عند غياب الوحي أو غياب الامام المعصوم.

إذن ليس خلاف السنة والشيعة مجرد اختلاف حول أحقية أبي بكر أو علي بقدر ما هو اختلاف في أصلح نظام للحكم.

ومرة أخرى ظهور الفكر السياسي في بيئة دينية هو الذي جعل من الأحزاب السياسية فرقاً دينية)[١].

وكل ذلك يدعو إلى توظيف الايجابيات وتجاوز السلبيات والعمل على وحدة الأمة وانقاذها من التشظي والصراع الذي لا ينتج ثمرة مفيدة لا دنيا ولا آخرة ـ والعمل على تعزيز العلاقة مع الله فهو صاحب الأمر هكذا فعل الأئمة (عليهم السلام) وعلماء المسلمين المخلصون.

---

[١] ينظر: الفرق والمذاهب الإسلامية، سعد رستم: ص٢٥٠ .

التجديد في الفكر الاسلامي.

اولاً: حركية النص القرآني

يتميز النص القرآني عن سواه من النصوص السماوية، وغير السماوية بالحركية والمرونة التي جعلته نصا ملائما لكل عصر، وهو وإن نزل في زمن معين وبقعة محددة، ولأمة معينة، لكنه خطاب عالمي الدلالة، وإن كان عربي الدلالة، إذ يمكن أن يُستدل ويُستفاد من آية واحدة، حكما معينا في زمن ما، وحكما أخرا في زمان أخر.

والحق إن القرآن معجزةٌ الآن كما كان معجزةً في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو يفيض بعطاياه لكل جيل وفي كُلّ زمان، حيث أنّ البشرية تكتشف أعماقاً جديدة في القرآن يوماً بعد يوم، وخاصة في آيات الآفاق والأنفس، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ سورة فصلت/ ٤١،فقد تحدّث القرآن عن كروية الأرض، والغلاف الجوي للأرض، ونسبية الزمان و غيرها من الأمور، في وقت لم يكن أحد يمكنه أن يفهم أو يتصوّر ما يقوله، فذكر ذلك على شكل إشارات يكتشفها الباحثون، ويتلقاها العالمون[1].

[1] مركز الأبحاث العقائدية: موسوعة من حياة المستبصرين/ط١(١٤٣٠هـ)/مطبعة ستارة. قم ٥٧٨/٥.

ولا يخفى مافي قوله تعالى (سنريهم)، باستخدام (سين) الإستقبال والفعل المضارع (نريهم)،المتعلق بفعل المستقبل، من إشارة واضحة الى الزمان المستقبلي، فضلا عما في كلمة (آفاق)من استبطان تعدد الجهات التي يمكن أن يطلع عليها الإنسان، وما ستفتحه من آفاق العلم والمعرفة، التي تهيئ للإنسان أسباب الإيمان بالله سبحانه، من خلال التعرف على بينات الله وحججه، والخضوع لها والتسليم بها.

فهي إذن دعوة لتهيئة العقل للإستدلال، والفكر للتأمل والنظر في الآيات، انطلاقا من النفس، التي هي المكون الأول والأقرب للإنسان، كما أنها القاعدة الأساس التي تشكل المنطلق الواسع للفكر الإنساني، في أن يجول في عالم الآيات والبينات الموصلة والدالة على غاية وحقيقة وجوده في هذا الكون، تلك الحقيقة، التي ستوصله الى حقيقة وجود الخالق سبحانه وتعالى .

بالتالي فالنص القرآني، نص عابر للحدود الزمانية، التي تحدد كل نص، سوى النص القرآني، بل فيه ما فيه من القدرة على استيعاب كل مجالات الحياة على تنوعها وتعددها، غير أنه، لا يمكن اسكناه روائع القرآن الكريم، واستنباط أحكامه الى لمن أوتي حظا من العلم، ونصيبا من المعرفة، يحوطهما الإخلاص بالنية التوفيق الإلهي.

والحق أنه كلما تقدمت البشرية بمعارفها، كلما وجدت في القرآن ما يبهرها، من جهة مواكبة النص القرآني لمتغيرات الحياة المختلفة، وبهذا فإن

مفهوم الإعجاز القرآني لم يعد بحدود الإعجاز البياني أو الغوي أو الغيبي، فحسب، بل تجاوزها الى أبعاد جديدة من الإعجاز .

وربما كان السر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن تتسع دائر فهم النص القرآني لغير العرب أيضا، وممن لا يعتقدون بالمعجزات إلا إذا كانت منطوية على حسابات مادية ذات طابع عددي أو علمي، تتلائم وتوجهاتهم العقيدية أو المادية، لذا فقد انفرطت عقود التفكر في القرآن الكريم، وأنتجت لنا الإعجاز العلمي والإعجاز العددي، وأصبح القرآن مرجعا لكثير من الباحثين، وفي أبواب العلم المختلفة، بيْد أنه لابد من التنبيه الى ما يأتي:

١ـ أن القرآن كتاب هداية في المقام الأول.

٢ـ ولأنه كذلك فإنه لايمكن إخضاع القرآن للنظريات العلمية المتغيرة .

٣ـ إن النص القرآني، نص يمكن أن يُستنطق، ولكن من ذوي الإختصاص، لاستخراج الأحكام، التي تكون موائمة لكل عصر ومصر.

ويمكن أن نقف على بعض النماذج التي تكشف عن حركية النص القرآن فمن جملة هذه الآيات، الآية التي تذكر الزوجية في النباتات، فكما قلنا سابقا: إن ظاهرة الزوجية في النباتات كانت معروفة للناس منذ القديم ولو بشكلها الجزئي .

ولكن لم تكن تعُرف بشكل قانون عام حتى أواسط القرن الثامن عشر حين استطاع العالم (لينه)،لأول مرة أن يكشف عن هذه الحقيقة، ولكن القرآن الكريم أخبر بذلك قبل أكثر من ألف عام))[1]، كقوله تعالى:

[1] ظ: ناصر مكارم الشيرازي:تفسير الأمثل ٣٣٧/٧.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾سورة الشعراء/٧، وقوله تعالى:﴿خلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾سورة لقمان/١٠،وقوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾سورة الرعد/٣.

ثانياً: التجديد في الفكر الاسلامي.

التجديد عند اهل المصطلح: هو:. " وجود شيءٍ كان على حالة ما، ثُمَّ طَرَأَ عليه ما غيَّره وأبلاه، فَإذا أُعيد إلى مثلِ حالته الأولى التي كان عليها قبل أن يصيبه البلى والتغيّر كان ذلِكَ تجديداً " (٢)

لقد استمد التجديد شرعيته من ورودِهِ في الحديث النبوي الشريف الذي قال فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:. " إنَّ اللهَ يَبعث لهذهِ الأمَّة مَن يُجدِّد لها دينها على رأسِ كُلِّ مائة سنة " (٣).

(٢) مفهوم تجديد الدين، سعيد بصطامي محمد، دار الدعوة، الكويت، ط١، ١٩٨٤م/ ١٥.

(٣) المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، ٤٠٥هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م . / ٤: ٥٦٧ برقم ٨٥٩٢ ، ينظر: سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، ٢٧٥هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار النشر: دار الفكر، ط٢، ب.ت / ٤: ١٠٩ برقم ٤٢٩١، وينظر: تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، ت ٤٦٣هـ، دارالكتب العلمية، بيروت، ب، ت /٢: ٦٢.

ولكي يتَّضِح المعنى الشرعي للتجديد في الفكر الاسلامي، لاسيما في ظلال هذا الحديث النبوي المبارك كان الواجب أن نستعرض بعض أقوال أهل العلم عن التجديد والمجدِّدين.

قال ابن القَيم عن المجددين:. " هُمْ غَرْسُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا يَزَالُ يَغْرِسُهُمْ فِي دِينِهِ وَهُمْ الَّذِينَ قال فِيهِمْ عَلِيٌّ بن ابي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ لَنْ تَخْلُو الارض من قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّتِهِ "[1]

إذاً فإن معنى التجديد هو:. " إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضياتها وإكثار العلم ونصرة اهله . " [2]

ويظهر معنى التجديد الاصطلاحي الشرعي للتجديد بشكل أوضح بتعريف أبي الأعلى المودودي أيضاً إذ يرى أن المُجدد هو:. " كل من أحيا معالم الدين بعد طموسها، وجدد حبله بعد انتفاضه " [3]

ثم أنَّ الرسول الكريم سيدنا محمداً صَلَّى الله عليهِ وسلَّم كان ولا زال المنهل العذب الذي يرتوي منه وينهل كل من صدق الله ورسوله صَلَّى الله عليهِ وسلَّم، حيث كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يأخذون منه

---

[1] إعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل – بيروت – ١٩٧٣م / ٤: ٢١٢.

[2] عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م / ٢: ٢٨٢، ينظر: موجز تاريخ تجديد الدين، أبو الأعلى المودودي، ترجمه الى العربية: محمد كاظم سباق، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٨م / ٦٢ .

[3] موجز تاريخ تجديد الدين، أبو الأعلى المودودي / ٦٢.

العقيدة الصافية ويتلقونها بكل قبول وتسليم دون اعتراض أو ابتداع، وذلك هو مقتضى التصديق والإيمان بالله العظيم وبرسوله الكريم صَلَّى الله عليهِ وسلَّم وبكل ما ورد من أساسيات الاعتقاد الثابت إلى يوم الساعة .

ولم يرد إلينا أن أحداً من الصحابة الكرام رضي الله عنهم تَرَدَّدَ في قبول هذا الاعتقاد العظيم . ولربما سألوا حضرة الرسول صَلَّى الله عليهِ وسلَّم عن بعض الأمور الشرعية العملية على سبيل الاسترشاد والاستيضاح، لا على سبيل المراء والعناد ولم يثبت أنهم سألوا في مسائل الاعتقاد إطلاقاً لأن إيمانهم كان مبنياً على صدق سريرتهم ونقاء قلوبهم وتصديق نبيهم صَلَّى الله عليهِ وسلَّم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما:. " ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليهِ وسلَّم ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قُبِض صَلَّى الله عليهِ وسلَّم كلها في القرآن: يسألونك عن المحيض، يسألونك عن الشهر الحرام، يسألونك عن اليتامى، ما كانوا يسألون إلا عَمَّا ينفعهم "[1]

فلم يكن الصحابة رضي الله عنهم يبحثون عن الخلافات العقائدية ولم يكن يتبعون المتشابهات ولم تزغ قلوبهم عن دين الله عز وجل أبداً، حيث كانوا يفتخرون بعقيدتهم الصحيحة التي وحدت قلوبهم وأرواحهم وعقولهم، فلم يكن بينهم أي خلاف يُذكر .

---

[1] إعلام الموقعين، ابن القيم الجوزية / ١: ٧١ .

يقول طاش كبري زادة .. [1]:. " إنَّ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا في زمن النبي صَلَّى الله عليهِ وسلَّم على عقيدة واحدة، لأنهم أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة صاحبه، وأزال عنهم ظلام الشكوك والأوهام " [2].

ولم يتخلَّف الصحابة رضي الله عنهم عن هذا المنهج القويم بل استمروا على ذلك حتى بعد انتقال النبي صَلَّى الله عليهِ وسلَّم إلى ربه، حيث لم يقع بينهم أي خلاف في مجال الاعتقاد .

ويعلق ابن قيم الجوزية على هذه الحالة النقية قائلاً:. " وقد تنازع الصحابة رضي الله عنهم في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً، ولكن بحمدِ الله لم يتنازعوا في مسألةٍ واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال"[3] أما التجديد في العقيدة " فالقول بتجديدها أمر غير وارد نقلا وعقلا، لكن تلك العقائد قد تبنى عليها وعلى

---

[1] هو أحمد بن مصطفى، مؤرخ تركي الأصل، له العديد من المصنفات، توفي عام ١٥٦١هـ . ينظر: الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٧، ١٩٧٦م / ١: ٣٥٧ .

[2] مفتاح السعادة ومصباح السيادة، طاش كبري زادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ب.ت / ٢: ١٤٣.

[3] اعلام الموقعين، ابن القيم الجوزية / ١: ٤٩

ما يتفرع منها عقائد فرعية في فترة معينة من الأفكار البشرية، هي التي تحتاج إلى المواجهة والتصفية، من تأثيراتها السيئة، وانحرافاتها الخطيرة "[1]

فالتجديد لا يعني تغير الثوابت، أو إضافة شيء جديد عليها، وعلى هذا فإنه لا تعارض بين الثبات والتجديد، فأصول العقائد ثابتة لا تتغير، ولا يمكن أن تتعرض إلى نظر أو تأويل لقطعية الدلالة عليها من القرآن والسنة النبوية وإجماع الأمة.

فكل ما يظهر فكر فاسد، يحتاج إلى فكر إسلامي يناهض ذلك الفكر على أن لا يخرج عن دائرة الكتاب والسنة النبوية، أو هو إحياء ما اندرس لمسيرة الفكر الإسلامي، الذي هو الثمرة للجهد البشري المستند إلى ضوابط القرآن والسنة النبوية ونعني بالتجديد " أن تكون الحركة الإصلاحية، أو الدعوات الاجتماعية، مسايرة لتطور الحياة، وتقدم العلم والحضارة "[2].

فالتجديد كخاصية مهمة من خصائص الفكر الاسلامي، هو بيان ما طرأ من انحرافات غيرت شكل الحياة الدينية التي كانت على عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله، والحياة التي كانت على عهد آله الاطهار

---

[1] تجديد الفكر الإسلامي تقويمه وتجديده، لمحسن عبد الحميد، مكتبة دار الأنبار، العراق، ط١، ١٩٧٥م ٠/٠٩٧ ٠

[2] دعوة الإسلام واقعية لا خيال، لمصطفى السباعي، دار الورق والنيرن –بيروت، ط١ – ٢٠٠٣م/ ١٤٠ ٠

وصحابته الاخيار، فما زاد على عهدهم من اخطاء اصابت الثوابت الشرعية، فالواجب ردها والعودة الى ما كان عليه العهد الاول .

الثبات والتجديد جدلية العلاقة الفكرية.

ونعني بالثبات قيام الفكر الاسلامي على ثوابت رئيسية تنطبق في واقعه بإيجابية تامة صحيحة، وسر نجاحهما انهما قاعدتان، أي الثبات والتجديد ليس لأي شخص العبث بهما: " وبما أنه ليس انتاج فكر بشري، ولا بيئة معينة، ولا فترة من الزمن خاصة، ولا لعوامل أرضية على وجه العموم، إنما ذلك الهدى الموهوب للإنسان، هبة لدنيه خالصة من خالق الإنسان رحمة بالإنسان، ومن هذه الأسس والثوابت، تنشأ خاصية أخرى وهي الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت"[1].

" فهي لا تتغير، ولا تتطور، أما التغير فإنما يكون في ظواهر الحياة الواقعية وأشكال الأوضاع العلمية، وبالوقت نفسه يبقى هذا الوضع محكوما بالمقومات والقيم الثابتة لهذا التطور " [2].

وذلك ان المقصود بالثبات استمرار حركة الفكر، وليس الجمود ومصادرة حركة الابداع: " ولا يقتضي هذا تجميد حركة الفكر والحياة،

---

[1] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، لسيد قطب /٨٥ .

[2] المصدر نفسه /٨٥ .

لكنه يقتضي السماح لها بالحركة بل دفعه إلى الحركة، ولكن داخل هذا الإطار الثابت وحول هذا المحور الثابت" [٣].

ومن هنا يتبين ان الحقائق الثابتة لا تتغير، وفي نفس الوقت هناك امور اخرى متغيرة ومتطورة تستند في حقيقتها الى الثوابت .

مثلاً: " مادة الكون، سواء كانت هي الذرة أو الإشعاع البسيط المنطلق عند تحطيمها، أو أية صورة أخرى ثابتة الماهية، ولكنها تتحرك فتأخذ أشكالا دائمة التغيير، والتحور والتطور، الذرة ذات نواة ثابتة تدور حولها الإلكترونات في مدار ثابت، وكل نجم، وكل كوكب، له مداره يتحرك فيه حول محوره حركه منتظمة محكمة بنظام خاص"[١].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ سورة الأنبياء الآيات: ٣٠-٣٣ .

هذه النصوص وغيرها مما في معناها " تدل على أن الكون تجري على مسرحه الحوادث، ويجري فيه تبديل وتغيير، ويتميز بالحركة، وتنتقل

---

[٣] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، لسيد قطب / ٨٥.

[١] المصدر نفسه / ٨٦ .

حوادثه من طور إلى طور، هذه الحوادث مرتبط بعضها ببعض، ما بين سابق ولاحق، بانتظام واطراد، يدل على أنها تتبع سنن مطردة، في حدوثها وحركتها"[٢].

فالثبات يعني الميزان الذي يحدد صلاحية الفكر من خلال عدم تمرده على أصله وواقعه، وللثبات ميزه نفتخر بها و بها تحدد مدى صلاحية أفكارنا وأساليبنا في الحياة.

[٢] الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحديات العصر، مجموعة من المؤلفين، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط٧، ٢٠٠٧ . /١٢٢ .

الفصل الرابع
علم الكلام وتطور
الفكر الإسلامي

الفصل الرابع

علم الكلام والفكر الاسلامي

المبحث الاول: علم الكلام والدفاع عنه.

المطلب الاول: نشأة علم الكلام.

ارتبط علم الكلام بمسألة كلام الله وتعد مسألة الكلام من المسائل المهمة في مسائل علم الكلام وهي المسألة التي اختلف فيها علماء الكلام حول طبيعة كلام الخالق هل هو قديم أم حادث؟ والمعروف ان الإجماع واقع بين علماء الإسلام بكل فرقهم، إن الله متكلم لورود الأدلة النقلية والعقلية واخبار الرسل والأنبياء بذلك، وقد اتفق علماء العقيدة على هذه الحقيقة اتفاقاً اطباقياً، ولكنهم اختلفوا في وصفهم لطبيعة هذا الكلام، فذهب الأشاعرة إلى أن الله متكلم بكلام قديم، ولأن الكلام صفة المتكلم، وإن الله ليس محلاً للحوادث فوجب أن يكون هذا الكلام قديماً، وأثبتوا القديم هو الكلام النفسي، وذهب المعتزلة إلى أن الله متكلم بكلام يحدثه في المحل القابل للكلام، فالكلام في هذه الحالة حادث وليس قديماً، وانكروا الكلام النفسي وادعوا بانه مخالف للعقل، وذهب الامامية مذهب المعتزلة، وهناك خلافات كثيرة حول الكلام وطبيعته، وذهب الحنابلة الى القول بقدم الكلام وانكروا كذلك الكلام النفسي ولكنهم لم يبينوا حقيقة كلام الباري واكتفوا بانه قديم بلا كيف كسائر الصفات،

وإن وقوفنا عند هذه المسألة بسبب ارتباطها بعلم الكلام ارتباطاً وثيقاً إذ ان أحد أسباب تسمية علم الكلام هي ارتباط مسألة الكلام بهذا العلم، وهو العلم الذي احتل مكانة هامة بين مباحث الفلسفة الإسلامية وقد مثل المتكلمون بكل مدارسهم الفلسفة الإسلامية تمثيلاً دقيقاً وعميقاً، ولما كان الفكر الإسلامي في مرحلة التأسيس يتحرك ضمن مسار مباحث علم الكلام والفلسفة الإسلامية، فكانت تسمية هذه المرحلة بمرحلة الفكر الإسلامي الكلامي، لأن ثقافة مفردات علم الكلام هي التي تركز فيها الفكر الإسلامي في مرحلته الأولى.

وعلم الكلام يعرّف تعريفات عدة كما ذكرنا سابقاً وعن طريق التعريف نتعرف على ظروف نشأة علم الكلام ولعل أشهرها تعريف التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون (هو علم يقتدر منه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبهة.. ويذكر التهانوي انه: يجب أن تؤخذ العقائد من الشرع ليعتد بها وإن كانت مما يستقل العقل فيه، وفي ذلك ما يميز علم الكلام عن الفلسفة فعلم الكلام يرتبط بالنقل، وينتقل الى العقل في حين ان الفلسفة تبدأ وترتبط بالعقل ثم تنتقل إلى النقل، أي ان المتكلم يعتقد ثم يستدل أما الفيلسوف فيستدل ثم يعتقد كما ذكر ذلك طاش كبري زادة في مفتاح السعادة)[1].

[1] ينظر: في علم الكلام/ م. س/ د. أحمد محمود صبحي: ص١٦ .

وعلم الكلام يتعلق بالأصول وهي العقائد وإثباتها والدفاع عنها، أما الفقه فيتعلق بالفروع وهي استنباط الأحكام ومعرفة الآراء المستنبطة من النصوص، وعلى ذلك احتل علم الكلام الأولوية في المعرفة الإسلامية لأنه سبب في التعرف على الإله المعبود وعلى أسس الإيمان وأصول الدين وتقسم مباحثه على ثلاثة أو أربعة مباحث بالتحديد وهي:

١. الإلهيات: وتبحث في أدلة وجود الله وصفاته وأسمائه .

٢. النبوات: وتبحث في أدلة النبوات العقلية والنقلية وشروط ومباحث النبوة، ويلحق الامامية مبحث الامامة بالنبوات فهم يعدون الامامة مكملة للنبوة.

٣. السمعيات: وهي المسائل المتعلقة بأمور اعتقادية ثبتت بالنقل أي بالسمع مثل الإيمان بالساعة وأشراطها وما بعد الموت واليوم الآخر وعذاب القبر والصراط وغيرها من مسائل لا سبيل إلى العقل لمعرفتها الا عن طريق النقل أي السمع.

٤. الطبيعيات: وهي مسائل الوجود والعدم والامكان والوجوب والجواهر والاعراض وما يتعلق بوجود الموجودات وطبيعتها، ويستدل المتكلمون بهذه المعرفة على معرفة الله تعالى وهي نوع من الاستدلال بالكون على المكون وأكثر الادلة ارتباطاً بهذه الفقرة هو دليل العناية والاختراع من أدلة وجود الله تعالى، وكذلك دليل الحدوث وباقي ادلة وجود الله تعالى التي توظف الدليل العقلي والعلوم الطبيعية.

وقد ذكر العلماء اسباباً عدة لتسمية علم الكلام بهذا الاسم منها لأن مباحثة الكلام في كذا فهو بإزاء المنطق للفلاسفة أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر الخلاف حولها واضطهد العلماء بسببها وذلك لتعلقها بكلام الله تعالى وخطورة أمرها، وكذلك من أسباب التسمية ان التمكن من هذا العلم يورث قدره على الكلام في الشرعيات مع الخصم.

ويضيف ابن خلدون تفسيراً آخر وهو سمي علم الكلام لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل[1].

وعلم الكلام علم نظري لا علاقة له بالأحكام العملية التكليفية فهو حركة فكرية تصورية وتصديقية؛ لأنه يتعامل في مسائل الاعتقاد.

(والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد كقولنا الله تعالى عالم سميع بصير قادر لا ما يقصد به العمل كقولنا: الوتر واجب أو الربا حرام)[2]، وهذه الأمور العملية محلها الفقه الذي تعامل مع استنباط الأحكام التكليفية من أدلتها التفصيلية، ولما كان علم الكلام يتعامل في مسائل العقيدة اكتسب في هذا المجال شرف المنزلة بين العلوم، ولما ذكر العلماء (ان غايته الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان وإرشاد

---

[1] ينظر: في علم الكلام/ م. س: ص١٨ . ١٩ .

[2] ينظر: مذاهب الإسلاميين، د. عبد الرحمن بدوي: ص٩ .

المسترشدين بإيضاح الحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم، وحفظ قواعد الدين من أن تزلزلها شبه المبطلين)[1].

أما ذم علم الكلام فإنه ينصرف إلى ذم علم الكلام البدعي الذي يوظفه أعداء الإسلام للطعن بعقائد الإسلام، وكذلك ما أورث الجدل وأثار الشبهات بين المسلمين وصرفهم عن العمل بالمحكمات إلى الجدل في المتشابهات، وقد ذم الحنابلة علم الكلام بسبب الظروف التي تداخلت بين محنة الإمام أحمد بن حنبل ومسألة إكراه العلماء على القول بخلق القرآن كل ذلك جعل بعض العلماء ينظر إلى ان جذور المشكلة نبتت في مسائل علم الكلام فألف موفق الدين ابن قدامة المقدسي كتاباً في ذم الكلام وأسماه (تحريم النظر في كتب أهل الكلام)، وصدرت فتاوى من بعض العلماء في هذا المجال تحرم فيها علم الكلام، وكان الإمام أبو الحسن الأشعري من أوائل الذين ردوا على دعوى الحنابلة في رسالة أسماها (استحسان الخوض في علم الكلام)، وتعرض فيه للرد على ما أثاره الحنابلة من ان علم الكلام من العلوم البدعية التي لم تحدث في عصر الرسول ﷺ، وإن مسائله لا مستند لها من النقل سوى أوهام العقل فثبت ان عدم ظهور علم الكلام في عصر النبي ﷺ ولا الصحابة الكرام، إنما كان بسبب عدم الحاجة إليه كما ان الحاجة إلى بعض العلوم لم تكن موجوده، ثم وجدت فيما بعد كما في علوم أصول الفقه ومسائل المواريث والعول،

[1] مذاهب الإسلاميين، د. عبد الرحمن بدوي: ص١١ .

وكذلك أحكام الحدود والنذور والوصايا والعتق والطلاق وغيرها، وأجاب بأن أصول مسائل علم الكلام موجودة في الكتاب والسنة، وأشار إلى أمثلة هذه المسائل منها مسائل ان للجسم نهاية، وإنه الجزء الذي لا ينقسم، فقوله (عز وجل): ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [1]، إشارة إلى ان كل شيء موجود محدود لأنه من المحال إحصاء مالا نهاية له، وهكذا في مسائل أخرى ويعود على مخالفيه بالحجة بقوله: إن النبي ﷺ لم يصح عنه حديث في أن القرآن غير مخلوق أو هو مخلوق فلم قلتم انه غير مخلوق؟ فإن قالوا: قاله بعض الصحابة وبعض التابعين قيل لهم يلزم الصحابي والتابعي ما يلزمكم من أن يكون مبتدعاً ضالاً، إذ قال ما لم يقله النبي ﷺ فإن قال قائل أنا أتوقف لا أقول مخلوق ولا غير مخلوق، قيل له: أنت في توقفك في ذلك مبتدع ضال لأن النبي ﷺ لم يقل: ان حدثت بعدي هذه الحادثة توقفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئاً، ولا قالوا ضللوا وكفروا من قال بخلقه أو بنفي خلقه..

وخبرونا لو قال قائل: علم الله مخلوق أكنتم تتوقفون فيه أم لا؟ فإن قالوا: لا قيل لهم لم يقل النبي ﷺ ولا أصحابه في ذلك شيئاً..)[2]، وهكذا يأتي أبو الحسن الأشعري على مقالتهم في تحريم علم الكلام مسألة مسألة يرد عليها بالدليل العقلي المستند على النقل وعند التأمل في ظهور علم

---

[1] سورة يس: من الآية (١٢) .

[2] ينظر: مذاهب الإسلاميين/ م. س: ص٢٢ وما بعدها .

الكلام نجد أن هذا العلم ظهر بعد أن ظهرت الحاجة إليه، وفي البدايات كانت المناظرات تحدث بين المسلمين حول مسائل العقيدة أو ما يرتبط بها ولكن كعلم استقر فيما بعد، وقد أشارت بعض المصادر إلى ان واصل بن عطاء (ت**١٣١**) كان قد ألف بعض الرسائل في مسائل علم الكلام مثل كتاب المنزلة بين المنزلتين وكتاب التوحيد، والواقع إننا لا نكاد نعثر على استعمال الكلام بالمعنى الاصطلاحي ولقب المتكلمين قبل كتب الجاحظ المتوفى (**٢٥٥**هـ)، وكان وقد عايش محنة خلق القرآن)[١].

[١] ينظر: مذاهب الإسلاميين: ص**٣١**. **٣٢** .

المطلب الثاني: كلام الله تعالى رؤية كلامية فكرية.

إن علم الكلام يرتبط بمسألة كلام الله تعالى ارتباطاً واضحاً لأنا إذا تأملنا في أسباب التسمية وجدنا ان اعتبار ارتباط التسمية بهذه المسالة له مبرراته القوية؛ لأن مسألة الكلام كانت أشهر مباحثه وأكثر نزاعاً وجدالاً وخوضاً حول طبيعتها، وكانت سبباً في اضطهاد بعض العلماء كما ذكرنا، وحمل الأمة على الاعتقاد بها عندما تغلب المعتزلة في عصر المأمون وبعض الخلفاء العباسيين، ولهذه المسألة ارتباط بمسائل صفات الله تعالى وعلاقتها بالذات، وكذلك بالقرآن الكريم ولها ارتباط واضح في مسائل القضاء والقدر والإرادة والعلم، لذلك ثار حولها الكثير من الشبهات والمساجلات الكلامية، وكما ذكرنا (إن الأمة متفقة على إطلاق لفظ المتكلم على الله تعالى إلا ان هذا الاتفاق ليس إلا في اللفظ، وأما المعنى فغير متفق عليه)[1]، وقد نقلت كتب الكلام هذا الاتفاق على انه تعالى متكلم والدليل عليه: إجماع الأنبياء (عليهم السلام) فقد تواتر انهم كانوا يثبتون له الكلام سبحانه وتعالى.. وذهب العلماء مذاهب في تعريف كلام الله تعالى، ثم قال الحنابلة: كلامه حرف وصوت يقومان بذاته وانه قديم، وقد بالغوا فيه حتى قال بعضهم جهلاً: الجلد والغلاف قديمان وهذا باطل بالضرورة .. وقالت المعتزلة: أصوات وحروف يخلقها الله في غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبي وهو حادث، والأشاعرة قالوا: لا

[1] الأربعين في أصول الدين، فخر الدين الرازي: ص١٧ .

ننكر ما قاله المعتزلة لكنا نثبت أمراً وراء ذلك وهو المعنى القائم بالنفس ونزعم انه غير العبارات، إذ قد تختلف العبارات بالأزمنة والأمكنة والأقوام.. ونزعم انه قديم لامتناع قيام الحوادث بذاته تعالى)[1]، والمعروف كلام الله تعالى يقصد به عدة أمور:

١ـ القرآن الكريم والكتب السماوية كذلك. وهي كتب انزلها الله بلغات متعددة، وهذه المسألة احدى حجج الاشاعرة في مسألة الكلام النفسي.

٢ـ أمره ونهيه تعالى وكذلك خلقه بالكلمة الكونية (كن).

٣ـ إخباره ووحيه إلى الأنبياء عن حوادث التاريخ في الماضي واخباره عن المستقبل.

وذهب الامامية في مسألة الكلام مذهب المعتزلة، واتفقوا على انه تعالى متكلم بأدلة نقلية كما هو ثابت عند باقي المدارس الكلامية، ولأن الكلام (مقدور والله تعالى قادر على جميع المقدورات)، وقد ورد السمع بإطلاقه عليه فيكون متكلماً.. وخالفوا الأشاعرة في قولهم بقدم الكلام والقائم في النفس وهو مغاير للعلم والإرادة، ويعبر عنه بالحروف والأصوات التي يتألف منها الكلام المسموع.. إلى أن قالوا وهذا غير معقول مما ذكره الأشاعرة، وقالوا ان المعتزلة أنكروا قدم الكلام والمعنى الذي ذكره الأشاعرة، وجعلوا المتكلم هو الموجد لحروف وأصوات دالة

[1] ينظر: المواقف في علم الكلام، عضد الدين الايجي: ص٢٩٣ـ٢٩٤ .

على المعاني الذهنية، أما في الأمر فعلى الطلب الذي هو الإرادة، وأما النهي فعلى طلب العدم وهو الكراهية وأما في الخبر فعلى معناه)[1]، وهذا يؤكد موافقتهم للمعتزلة وأساس المسألة انهم اختلفوا ان الكلام المؤلف من أصوات لابد أن يكون حادثاً وهم متفقون على ذلك باستثناء الحنابلة الذين قالوا بقدم الكلام سواء كان في الاصوات والحروف التي في القرآن الكريم أم في الكلام الذي كلم الله به الأنبياء السابقين والأخبار وكلمة الخلق في أمره كن فيكون.

واستدل الأشاعرة في إثبات صفة الكلام في ردهم على المعتزلة في قولهم انه متكلم (معناه انه موجد للكلام لا انه محل له فإنهم جوزوا قيام كلام الله بغيره، وقال الشريف الجرجاني في حواشي الكشاف يرد على الزمخشري المعتزلي: ان المتكلم على قاعدة اللغة في المشتقات كالمتحرك والأسود من قام به الكلام كما ان المتحرك من قامت به الحركة وليس من أوجد الحركة في غيره، وكذلك كالأسود لمن قام به السواد ليس لمن أوجد السواد في غيره.. وإن إضافة الكلام إلى موجده بكونه قاصداً معاني تلك الكلمات فأن هذا المعنى لازم في الأكثر بمعنى القيام ـ أي بالنفس ـ ومجرد الإيجاد لا يستلزم هذا المعنى.. وإن إيجاد العرض في محل لا يستلزم اتصاف الموجد به، فمن أوجد الحركة في جسم لا يتصف الموجد بأنه

[1] ينظر: كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد، للمحقق الطوسي والعلامة الحلي، تحقيق وتعليق الشيخ حسن مكي العاملي: ص١٩

متحرك.. فالكلام يضاف إلى المتكلم الذي قصد معناه.. وهذا المعنى هو القائم في النفس الذي يعبر عنه بالكلمات والحروف، وكذلك قد يفهم ان المتحرك من قام به الحركة لا من أوجدها، ولو صح ذلك لصح اتصافه تعالى بالاعراض المخلوقة له ولا يخفى ضعف هذا الرأي لاستحالة قيام الحوادث به)[1].

واتفق الامامية مع الجميع بان كلام الله الذي في القرآن الكريم حادث وهي مسألة متفق عليها بين جميع الفرق الا ان الامامية نفوا الكلام النفسي القديم، وقد وردت روايات عن الائمة (عليهم السلام)، تؤكد بام كلام الله حادث، فقد روى الصدوق عن كلام الله: (من زعم ان القرآن مخلوق بمعنى انه مكذوب فقد كفر، ومن قال انه غير مخلوق بمعنى انه غير مكذوب، فقد صدق ومن زعم انه غير مخلوق بمعنى انه غير محدث وغير منزل وغير محفوظ فقد أخطأ إلى أن قال: وقد أجمع أهل الإسلام على ان القرآن كلام الله (عز وجل) على الحقيقة دون المجاز)[2].

ولا نريد الإطالة في مسالة من مسائل تتعلق بصفات الله تعالى التي يعجز العقل الإحاطة بها واستيعاب مداخلها، ولكن كما ذكرنا ان جميع

---

[1] ينظر: مباحث الرؤية والكلام من عويصات علم الكلام، المولى تقي الدين ابن الخطيب زاده (ت٩٠١هـ)، دراسة وتحقيق موفق محمد عباس، رسالة ماجستير: ص٨٤ وما بعدها من النص المحقق.

[2] الاعتقادات للصدوق، ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين ت٣٨١هـ، تحقيق مؤسسة الإمام الهادي (عليه السلام):ص١٥٦ من القسم المحقق.

العلماء متفقون على ان الكلام الذي هو الألفاظ مخلوق وعلى انه غير قائم بذاته سبحانه وتعالى باستثناء الحنابلة، فقد ذهبوا إلى ان هذه الحروف والأصوات قديمة بذاتها، وإنها هي المعني بصفة الكلام، وذهب جمهور العلماء إلى ان المعنى الذي هو مدلول العبارات اسمه الكلام النفسي وانه صفة زائدة على كل من صفتي العلم والإرادة، وإنه صفة قديمة قائمة بذاتها)[1].

وكل ما اثير حول هذه المسألة مرتبط بالخلاف بين الامام أحمد والمعتزلة في محنة خلق القرآن، وكما علمنا بأن المسالة لم تعد تقرأ كالقراءة التاريخية القديمة التي ترتب عليها الصراع والخلاف في المواقف، وتولد منها تلك الحوادث التي شكلت انتكاسة للفكر الإسلامي في عصر تحكمت فيه الخلافات السياسية، ووظف فيها الدين والفكر الإسلامي لممارسة تصفية الخصوم واقصاء الآخر المخالف، وانتصر فيها التعصب والانغلاق، وتوقف فيها الحوار والتكامل المعرفي وتعطل فيه العمل العقلي الذي انتعش في حركة علم الكلام في تقريره لمسائل العقيدة ودفاعه عن العقائد بالحجج العقلية العلمية التي ساهمت في إيقاف تداعيات شبهات أعداء الإسلام، وأثبتت ان هذا الدين هو دين العلم والدليل والبرهان.

---

[1] ينظر: كبرى اليقنيات الكونية/ م. س: ص١٠٤ .

وفي رواية ان امرأة من ترمذ سالت أبي حنيفة (رحمه الله): أين إلهك الذي تعبده؟ كأنها تريد التشكيك أو تدعي العلم فسكت أبو حنيفة ثم مكث سبعة أيام لا يجيبها، ثم خرج وقد وضع كتاباً فقال: إن الله سبحانه وتعالى في السماء دون الأرض، فقال له رجل أرأيت قوله تعالى (وهو معكم)، قال هو كما تكتب للرجل أني معك وأنت عنه غائب، قال البيهقي: لقد أصاب أبو حنيفة فيما نفى عن الله وتأويل الآية)[1]. وشاهد هذا الرواية ان العقائد الدينية لا تصطدم بالمقررات العقلية، واذا اصطدمت نلجأ الى قانون التأويل لتحصين العقل من التشبيه والتعطيل.

علم الكلام ودوره في الدفاع عن العقيدة ورد الشبهات:

إن استقرار مصطلح علم الكلام مر بمراحل كما هو شأن بقية العلوم، ففي البداية كانت حركة الفكر تحفر في ذاكرة تاريخ العلوم مسارها (ولقد تكلم الناس وخاضوا في الكلام قبل أن يطلقوا على جملة المسائل التي صارت موضوعاً لنوع خاص من الخطاب اسم علم الكلام.. ولا نعرف بالتدقيق متى ظهر مصطلح (علم الكلام)، ويربطه الشهرستاني كما ربطه الأشعري بظهور الخلاف وكما هو معروف إن أول خلاف كان حول الخلافة، ومعلوم أيضاً ان هذا الخلاف كان ظرفياً، ثم

[1] ينظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ابن القيم (٧٥١هـ)، تحقيق رضوان جامع رضوان: ص١٠٩٥ . وقد ضعف ابن القيم هذه الرواية.

تراجع وفي عهد الإمام علي (عليه السلام) ظهر الخلاف على اتجاهين: أحدهما الاختلاف في الامامة، والثاني الاختلاف في الأصول.

أما الاختلاف في الامامة وهو أعظم (خلاف في الأمة) فقد انحصر في تيارين كبيرين، تيار يقول انها تثبت بالاتفاق والاختيار وهو رأي من سيعرفون بأهل السنة، وتيار يقول بالنص والتعيين وهو تيار من سيعرفون بالشيعة، أما الاختلاف في الأصول فيحدده الشهرستاني بـ آخر أيام الصحابة (أي ما يطابق عهد عبد الملك بن مروان على وجه التقريب)، ويربطه بظهور بدعة معبد الجهني وغيلان الدمشقي، ويونس الأسواري في القول بالقدر.. ثم يوجز تطور هذا الخلاف مع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد المؤسسين للاعتزال كمذهب، ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وأفردتها فناً من فنون العلم وسمتها باسم الكلام، ويضعنا هذا النص الذي ذكره الشهرستاني في الملل والنحل أمام بداية الكلام وبداية الفلسفة.. والحق إن ظهور المتكلم وهو المثقف يومئذ لا يمكن أن يتم إلا بظهور الآراء المتعددة والمتنوعة المختلفة، لقد ظهر الكلام إذن مع ظهور الخلاف وتطور في إطار مذهب نضجت فيه المقالات، فارتفع إلى مستوى العلم أي أصبح قابلاً للتصنيف والتبويب والعرض المنظم ذلك بعد أن فك ارتباطه بالحاضر وارتفع بسياسة الماضي إلى مستوى العقيدة، وقد وافق ذلك ترجمة فلسفة اليونان وعلومهم فتزامن نضج مقالات المتكلمين

مع بداية انتشار أقاويل الفلاسفة، فقام جيل المتكلمين الجدد وهم المتكلمون المتفلسفون بدل الجيل القديم جيل اصحاب الرأي والمقالات، لقد ظهر الجيل الاول نتيجة انفصال القبيلة عن الاهتمام بمسائل العقيدة مع الأمويين، وظهر الجيل الثاني نتيجة اصطدام العقيدة الإسلامية مع العقائد الأخرى لأهل الملل والنحل المخالفة للإسلام، ثم ظهر الجيل الثالث مع انتشار المنطق والفلسفة، وتم تدشين مرحلة أخرى من تاريخ الكلام سماها ابن خلدون (طريقة المتأخرين)[1].

جليل الكلام أو طريقة المتقدمين:

سبق أن عرفنا جليل الكلام ودقيقه في الفصل الثالث ولكن المقام يقتضي تفصيلاً آخر فنقول:

كانت مرحلة المتقدمين تتمثل بالتماهي مع النص وتتحرك في مجاله الدلالي، وتتأثر بالرواية وتتحرك بوجل من التمادي بالعقل والخروج على الثوابت التي حددها النص، وكانت كذلك تستلهم وتقتفي أثر التجربة الأولى للإسلام في جيل الصحابة، وتخشى الاسترسال مع الأفكار التي يثيرها العقل قبالة النص الديني، وعلى هذا الأساس تحكمت في الحياة الفكرية لعلماء الإسلام مفاهيم جعلت الرؤية السائدة تنظر إلى المستقبل

[1] ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد، مقدمة، د. عابد الجابري/ عن المقدمة/ص٦٢.

رؤية متشائمة، وهي ان التجربة الإسلامية تسير نحو التراجع، وإن الجيل الأول والتجربة التي عايشها الصحابة هي أعظم ما وصل إليه الإنسان على الأرض، ولا يمكن تكرارها، وكما ذكرنا جعلت بعض النصوص الحديثية إطاراً مرجعياً لهذه الأفكار مثل حديث الفرقة الناجية وحديث خيرية القرون الأولى، كما ورد في حديث شريف قوله(ﷺ) (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[1]، وبناء على هيمنة هذه الأفكار على الحياة في العصور الإسلامية الأولى تم التعامل مع علم الكلام على انه كلام بدعي، ويؤدي إلى الفتن والخوض في مسائل لا نفع فيها وتحكم في الحياة الفكرية اتجاه النصوص والسلفية الفكرية. وموروست عمليات التعصب الفكري والصراع الايديولوجي بين الأفكار وتراجع العقل أمام دعاوى إتباع النقل، ويبدو ان هذا الاتجاه حافظ على ثوابت الدين أمام الغزو الثقافي الوافد إلى حدٍ ما، ولكن تراجع العمل العقلي وهيمنة الفكر الارثوذكسي ـ النصي ـ على الاتجاهات العامة كان مؤشراً سلبياً في عملية الانفتاح على العالم والفكر الإنساني والانطلاق بالمنظومة الفكرية الإسلامية نحو التبشير بعالمية الإسلامية وصلاحيته لكل زمان ومكان، الأمر الذي أدى إلى سكون الحركة الفكرية وكمون مفاعيل الفكر الإسلامي المرتبطة بالنص المتجدد بالتأويل والمعجز في صلاحيته وكفايته لحاجة الإنسان الفكرية على الأرض، وهو أمر أدى إلى ظهور تيارات

[1] صحيح مسلم، ج٢: ص١٧٦و ١٧٨ .

متصارعة استهلكت الطاقة الفكرية على مسائل جانبية، وتخلت عن الريادة والإيجابية الحضارية في المشروع الفكري الإسلامي، ونشطت الحركات الباطنية والأفكار الفلسفية المستمدة من الأفكار الشاذة والطبيعة المادية التي نشأت فيها الفلسفة اليونانية، وكان هذا تحدياً كبيراً واجهه علماء الإسلام الذين استدرجوا لمسائل الخلاف حول علاقة الصفات بالذات الإلهية ومسائل حرية الإرادة وغيرها من المسائل التي لم تكن تعبر عن حقيقة المشكلة التي كانت تواجه العالم الإسلامي، ونمو تيارات الفلسفات الغنوصية الهندية والفلسفة اليونانية والفلسفة الشرقية، وعقائد ونحل الأمم التي دخلت الإسلام دخولاً هامشياً أو مقصوداً لإثارة الشبهات لتعبر عن صورة من صور الصراع الفكري بين الإسلام وأعداءه.

إن حركة الفكر الإسلامي التي ارتبطت بالفكر الكلامي حققت فاعليتها الفكرية عن طريق الاستقلال عن النظر السياسي وتخصصها في مجال النظر والتفكير(وتاريخ علم الكلام منظوراً إليه من زاوية تطور بناءه الداخلي هو في الحقيقة والواقع تاريخ التفكير النظري في الإسلام.. والنظر في الخطاب العربي الإسلامي في مقابل(العمل) باعتبار ان العمل هو مجال الشريعة والفقه.. وعلى هذا المستوى يمكن التمييز بين أربع لحظات في تاريخ علم الكلام تأخذ اسم الشخصية التي مثلتها وهي لحظة واصل بن عطاء ولحظة أبي الهذيل العلاف في مذهب المعتزلة، ولحظة أبي الحسن

الأشعري، ثم لحظة فخر الدين الرازي في الأشعرية، ولحظة الرازي ومتأخري الأشاعرة يطلق عليها ابن خلدون اسم (طريقة المتأخرين) تمييزاً لها عن طريقة المتقدمين)[1].

إن أهم ما يميز طريقة المتأخرين هي إغراقهم في توظيف الفلسفة والمنطق في مسائل علم الكلام على عكس طريقة المتقدمين، وتجمع كتب الفرق على ان أبا الهذيل العلاف (ت٢٣٥هـ) كان المنظم لمذهب المعتزلة، فهو شيخ المعتزلة ومقدم الطريقة والمناظر عليها كما يذكر الشهرستاني وفي فكره وعلى يديه ظهرت قضية دقيق الكلام بعد أن ألف كتاباً في الجوهر الفرد، وقد وظف المتكلمون آراءهم في الطبيعة وظواهرها بقصد الاستدلال على صحة آراءهم في جليل الكلام (الله وصفاته وأفعاله) كما وضحنا سابقاً، ودقيق الكلام شكل محور ما يسمى بفيزياء الكلام أو الفيزياء الكلامية)[2].

دقيق الكلام (طريقة المتأخرين):

استقر علم الكلام على طريقة المتأخرين، وتم توظيف المنطق والفلسفة للاستدلال على المسائل الكلامية، وشاعت مباحث الكلام حول الطبيعيات والوجود والعدم والإمكان والوجوب كل ذلك للتدليل

---

[1] ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، م. س، مقدمة تحليلية عن المقدمة، عابد الجابري: ص١٥ .

[2] ينظر: المصدر نفسه: ص٢٠ .

على الذات الإلهية وصفاته العليا، وكانت مسألة الجزء الذي لا يتجزأ أو الجوهر الفرد أول ما أثيرت في سياق الكلام في علم الله وقدرته، وفي هذا السياق ما استدل به أبو الهذيل العلاف على حدوث العالم.. بأن أشياء العالم قابلة للعد، وبما ان الله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[1]، فيجب أن تكون أشياء العالم عبارة عن أجزاء محصورة العدد وبالتالي محصورة التجزئة، فلما كان القديم عند أبي الهذيل ليس بذي نهاية ولا يجري عليه بعض ولا كل وجب أن يكون المحَدث ذا غاية ونهاية وأن له كلاً وجمعاً.

ودليله فيما يرويه الخياط: وجدت المحدثات ذات أبعاض وما كان كذلك فواجب أن يكون له كل وجميع، وبعبارة أخرى لما كانت أجزاء العالم عبارة عن أجزاء فإن لها كلاً.. بمعنى إن أي شيء في العالم يشكل كلاً فهو ذو أجزاء لأن الكل إنما هو كذلك لكونه مجموعة أجزاء واذن فجميع اشياء العالم عبارة عن أجزاء، ولكي تكون الأجزاء قابلة لأن يحيط بها علم الله وقابلة للعد وجب أن تكون متناهية ومحصورة العدد، الشيء الذي يستلزم وقوف التجزئة عند حد ما لا تتعداه وهو الجزء الذي لا يتجزأ.. غير إن فكرة الجزء الذي لا يتجزأ إذا صح انها أثيرت أول الأمر مع أبي الهذيل العلاف لإثبات إحاطة علم الله بكل شيء وقدرته على إبطال

[1] سورة الجن: من الآية (٢٨).

الاجتماع والاتصال في الأجسام حتى تصير أجزاء لا تتجزأ بحسب قول العلاف: إن الجسم يجوز أن يفرقه الله سبحانه ويبطل ما فيه من الاجتماع حتى يصير جزءً لا يتجزأ .. وسرعان ما وظفت هذه المسألة في القضية الأساسية في علم الكلام قضية (حدوث العالم) التي اتخذ منها المتكلمون مقدمتهم الضرورية لإثبات وجود الله ووحدانيته ومخالفته لكل المخلوقات.

وكانت طريقتهم في الاستدلال: إن العالم مؤلف من أجزاء، وهذه الأجزاء لا يمكن أن تتجزأ إلى مالا نهاية ولابد أن تقف فيها التجزئة عند حد معين لا يقبل التجزئة سموه بالجوهر الفرد)[1].

وإن علماء الكلام استدلوا بإن الله الذي يجمع الأجزاء التي لا تتجزأ فيؤلف من هذه الجواهر أجساماً واعراضاً تحل في مجموع الجواهر، وكل هذا يدل على الحدوث وإن إحداث هذه الظواهر مرتبط بواجب الوجود الله سبحانه وتعالى الذي له القدرة والعلم، وصفات الكمال التي يعرف بها خالق الوجود الله سبحانه وتعالى.

إن تطور مقالات الإسلاميين في دقيق الكلام وحد الخطاب في توظيف العلوم الطبيعية لإثبات الصانع واجب الوجود الخالق العظيم.. وكان توظيف دقيق الكلام يعبر عن إدراك عميق لطبيعة الوجود والخلق،

[1] ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة/ م. س، عن المقدمة: ص٢٢ .

وإن عمق الفكر في الكون يعمق الإيمان بالله ويوظف التطور العلمي لصالح الحقائق الإيمانية، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى تطبيق هذا المنهج.

إن العلوم الطبيعية تمدنا بتصورات أكثر رسوخاً وتثبت لنا ان الطبيعة ليست ركاماً عشوائياً مادياً شاغلة للفراغ، بل هي بناء وحوادث أو منهج منتظم من السلوك وهي في التعبير القرآني الرائع (سنن الله) أي كل شيء في الوجود خاضع للقوانين الإلهية، والطبيعة مركب حي دائم الحركة والنمو، ونموه ليست له حدود نهائية خارجية وحده الوحيد هو الذات الأزلية التي تبعث الحياة في الوحدة الكلية وتبقيها حية كما يقول القرآن الكريم: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[1]، وهذا الرأي يضفي على العلوم الطبيعية معنى روحياً جديداً.

فالعلم بالطبيعة هو العلم بسنة الله.. من هنا بدأ الفكر الكلامي في عملية ربط عميقة بين وجود المادة بوجود الخالق العظيم، وقال الكلاميون المعتزلة والأشاعرة والامامية إن الله يبدأ الخلق بالجوهر الفرد ثم يتكون من هذا الجوهر صور العالم المادي.. وإن الكلام في الجوهر الفرد بدأه علماء الكلام المسلمون وهو أول دليل على التمرد العقلي على مذهب أرسطو القائل بعالم ثابت، وأول من تكلم من مذهب البصرة في

[1] سورة النجم: الآية (٤٦).

هذا الموضوع أبو هاشم الجبائي، وجاء بعده الباقلاني الأشعري الذي كان أكثر علماء الكلام دقة وأعظمهم جرأة، ويذهب العالم الأمريكي ماكدونالد بأن الفلسفة اليونانية ليس فيها ما يشبه رأي المسلمين في الجوهر الفرد)[1]، إن دقيق الكلام والتعمق فيه سحب المسلمين من التفكير في القضايا الخلافية في حركة الفكر وهي مسألة التفكير في علاقة الصفات بالذات وغيرها من مسائل جليل الكلام، وعندما بدأ علماء الكلام في تعاطي مفردات دقيق الكلام توحد الخطاب عندهم، وبدأنا نقرأ فكراً كلامياً واحداً يتكلم به الأشعري والمعتزلي والامامي كلهم بدأوا يخضعون الفكر للحقائق التي صرح بها النقل وهي الإيمان بالله فقام هؤلاء بتوظيف المعرفة الطبيعية لخدمة المعرفة الدينية، ولاشك في ان المعتزلة عندما استندوا إلى القرآن الكريم والوحي، وعرضوا ما وجدوه في الوحي من فضاء معرفي مفتوح يستدرج الفكر واللغة للولوج إلى عالم الوجود أدركوا ضحالة الفكر الفلسفي اليوناني ذلك لأن الفلسفة انطلقت من العالم لتصل إلى الله وهو أمر استدرجها إلى توهمات في تصورات الفكر الفلسفي، لأنهم قاسوا الغائب الذي هو الله على الشاهد الذي هو العالم، وهو قياس باطل ولكن الكلاميين الإسلاميين وأولهم المعتزلة ابتدأوا طريقتهم من الله كحقيقة جاء بها الوحي لينطلقوا لمعرفة العالم، وبذلك كان هاجس تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات مسيطراً على فكر المعتزلة والامامية فيما بعد وهو الأمر الذي دعاهم لأنكار الكثير من المسائل في

[1] ينظر: تجديد التفكير الديني، د. محمد إقبال، ترجمة عباس محمود: ص٦٨. ٨٠ .

جليل الكلام خوفاً من التشبيه، وأول ما أنكروا أن تكون الصفات قديمة، لأن ذلك بحسب منهجهم إثبات ذوات قديمة متعددة وأنكروا الرؤية ـ أي رؤية الله يوم القيامة ـ للأسباب نفسها، وأنكروا أن يكون كلام الله تعالى قديماً كذلك، وتخلوا عن قياس الغائب على الشاهد وشعروا بهبوط الفكر الفلسفي باتجاه المادة وأوهامها لما معهم من معارف بالنصوص الدينية التي رسمت مسار حركة الفكر في مسائل التصور حول الذات الإلهية، وفي المقابل كانت الاتجاهات الأصولية أو السلفية الحنبلية في الاتجاهات السنية والإخبارية في الاتجاهات الشيعية تحاول تعظيم الذات الإلهية في اتباعها للنصوص، ومع ان المسلك الفلسفي أكثر تحرراً من المسلك الكلامي بسبب تحدد الكلامي، بالنصوص ولذلك كانت الفلسفة مفتوحة في فضائها المعرفي لا يحددها إطار معين وليست محملة بمواقف مسبقة (إلا ان الاستنباطات التي يتوصل إليها عبر مسلك الفلسفة غالباً ما تكون عرضة لمنتجات الوهم المحدود الذي هو بالضرورة قاصر عن إدراك الحقائق الغيبية بحكم كونه منتمياً إلى عالم المادة والحس)[1]، إن النص ومقاصد الوحي جاءت بحقائق إيمانية تعزز استقرار الإنسان وتنمي روابط وأواصر التكامل المعرفي عن طريق نسبية المعرفة البشرية، ومع هذه المقاصد السامية للدين إلا ان مشكلات كثيرة واجهت حركة الفكر في التعامل مع النص ودلالات النصوص من هنا توقف الكثير من العلماء عن الخوض في متابعة حركة النص وسبر أغواره

[1] دقيق الكلام، د. محمد باسل الطائي، عالم الكتب. بيروت: ص٣٣ .

في مسائل الاعتقاد، وسلموا بظواهر الدلالات ووقفوا ضد اتجاهات الفكر الكلامي بصورة عامة، وأعلنوا حملة مضادة لعلماء الكلام وكان ذلك بسبب الخوف من الانحراف في التصورات العقدية لمسائل جليل الكلام، واتهم علماء الكلام كما ذكرنا في البداية بسيل من التهم، لكن حركة الفكر واستفاضة النصوص بالدعوة إلى توظيف الفكر والنظر لمعرفة حقائق الدين وظهور الشبهات والبدع، كل ذلك دفع بعض العلماء للدفاع عن الفكر الكلامي وكتب الإمام الغزالي كتابه (الجام العوام عن علم الكلام) ليوضح حقيقة أساسية وهي ان علم الكلام كالدواء بالنسبة للمريض لابد أن يؤخذ عند الحاجة وبقدر معلوم، ويشير إلى ان ظهور البدع يؤكد الحاجة إلى علم الكلام مع ان هذا العلم لم يكن مألوفاً في العصر الأول (ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ونبغت جماعة لفقوا لها شبهاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى بدعته) [1]، كان هذا الاتجاه واضحاً في جليل الكلام، أما في دقيق الكلام فإن المسألة أخذت منحىً آخر وهو ان المعتزلة والامامية والأشاعرة وغيرهم عندما تداولوا مسائل علم الكلام بالطريقة الكلامية ابتداء من الوجود والعدم والحدوث والامكان والجوهر الفرد والعرض وغيرها من

[1] ينظر: الإمام الغزالي وعلم الكلام، م. س: ص٢٥.

مسائل دقيق الكلام التي وحدت الخطاب في اثبات العقائد والدفاع عنها ضد الشبهات وتناست الخلافات العقدية في الأصول.

المبحث الثاني: ظهور الفكر الإسلامي الحديث

المطلب الاول: ظهور الفكر الإسلامي الحديث.

التمهيد:

إن تطور الفكر والوعي يرتبط بتطور مجالات الحياة المتنوعة وما حدث من تطور وثقافة جديدة يعد نقله نوعية في الحياة الإنسانية (ووفقاً لكلام العالم الأمريكي جوليوس روبرت أوبنهيمر مخترع القنبلة الهيدروجينية: إن الجنس البشري قد حقق تقدماً تكنولوجياً ومادياً في الأربعين سنة الماضية أكثر مما حققه خلال الأربعين قرناً الماضية، وفي مدى ٣٠ سنة قادمة سوف تستبدل تماماً المحركات ذات المكبس القديم بسفن تديرها الطاقة النووية ان اليوم الذي ستقوم به الكابلات الكهربائية تحت أرض الشوارع بتسيير السيارات الكهربائية على الطريق سيكون قريباً)[1].

ولكن هناك إجماع في الرأي على ان الوقت الراهن يتميز بالتزايد المذهل للجريمة، وهناك مؤشرات خطيرة على ان البشر اليوم يعانون من فقدان للتوازن النفسي بسبب ضغط الحياة كل هذه المؤثرات دخلت العالم

[1] الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجو فتش: ص١٢٥ .

الإسلامي بالاختيار أو الإكراه، وأدى هذا الاقتحام إلى شعور يتنامى بضرورة مواجهة التحديات الخطيرة، والعودة إلى الإيمان لأن العلم لا يمكن أن يحقق الاستقرار، وكما يذكر الشاعر السوفيتي فوزنستكي: (بأن الكمبيوتر في المستقبل سيكون من الناحية النظرية قادراً على عمل كل شيء يقوم به الإنسان فيما عدا أمرين: أن يكون متديناً وأن يكتب شعراً)[1].

فالعلم لا يرقى بالإنسان ليجعله أفضل مما هو عليه أو أكثر حرية، إن العلم يجعل الإنسان أكثر قدرة وأكثر كفاءة.. وقد برهن التاريخ على ان الناس المتعلمين يمكن التلاعب بهم بل يمكن أن يكونوا ممارسين ودعاة إلى الشر، وربما يكونون أكثر كفاءة في هذا المجال من الشعوب المتخلفة، وهذا ما حصل فظهر الغرب المتعلم والمتطور تكنولوجياً أكثر بشاعة في تدمير الحياة واستغلال الشعوب المحرومة من التعلم .. من هنا ظهرت قضية الهوية والتمسك بها، ويحاول المفكرون المسلمون مواجهة هذه التحديات عن طريق العودة إلى الهوية الإسلامية.. وهنا ظهر دور الفكر الإسلامي في المحافظة على الأصول والتكيف مع المتغيرات والتحديات المعاصرة، وإثبات اصالة المشروع الإسلامي لإنقاذ الإنسانية التي تعاني من مشكلات بنيوية مستديمة لا حل لها إلا بالرجوع إلى الإيمان، ولكن الفكر الإسلامي الحديث يواجه تحديات خطيرة داخلية وخارجية، ومن يمعن النظر في أوضاع المسلمين في العصر الراهن يجد أن التراجع المخيف

---

[1] الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجو فتش: ص٧٩ .

في واقع المسلمين يهدد الأمة ويعصف بها في متاهات التقليد والضياع، ولعل أهم مظاهر التراجع يمكن تحديدها بما يأتي:

١. البعد عن هداية القرآن والانشغال بظاهرية لفظية أكثر من تحقيق منهج القرآن في بناء الأمة وحال الأمة كمن يزين القرآن بالخطوط والجلد والتذهيب، ويعتز بهذه الأمور وهو في حياته نموذج في إهمال فاعلية القرآن في الحياة ومراعاة السنن التي بيّنها الكتاب الكريم الذي فيه خارطة طريق واضحة المعالم لرحلة الإنسان على الأرض.

٢. إهمال دراسة السنة النبوية الشريفة ورموز الأمة الذين شكلوا النموذج للاقتداء مثل أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وكبار الصحابة الكرام، والتحقيق في البرنامج الحضاري الذي بنى به رسول الله ﷺ أمة الإسلام التي واجهت الحضارة المادية المعاصرة وإزاحتها في مدة قصيرة من الزمن، ولعل أهم قضية في دلالة السنة هي تطبيق تعاليم القرآن الكريم في الواقع، وبناء حضارة إسلامية قائمة على التعدد والتعاون والتعايش، ولقد نجح رسول الله ﷺ في هذا المشروع حتى ان المستشرق مايكل هارت عندما كتب كتابه المائة الأول وضع محمداً ﷺ أول المئة لأنه (عليه الصلاة والسلام) ترك أثراً على العالم لن يمحى وفي مدة قصيرة تعد معجزة.

٣. التعصب المذهبي والفرقي الذي يهدد الجهود ويستنزف الطاقات على مسائل جزئية ويتجاهل الرؤية الكلية للإسلام التي يفتقد إليها العالم

اليوم بفلسفته المادية والالحادية، وقد أثر هذا التعصب حتى فرق وحدة الأمة وحولها إلى أجزاء مشتتة ومتصارعة.

٤. غياب الإيمان بالعقيدة الإسلامية التي تشكل الدافع الأساس في بناء حضارة إنسانية؛ لأن غياب الإيمان بالله يؤدي إلى نزعات مادية وإلحادية تساعد على ظهور الأمراض الاجتماعية وتدمر الأسرة والمجتمع.

٥. غياب معالم طريق الإسلام الحق الذي يعتمد على الجمع بين العقل والنقل ومهتدي بالدليل والبرهان الأمر الذي أدى إلى ظهور البدع والأهواء والخرافات ومظاهر الشرك لدى الكثير من المسلمين، يضاف إلى ذلك ظهور النزعة الدنيوية التي عمقت التحاسد والتباغض، وجذرت الكراهية والتعصب على حساب التسامح والتعايش الذي شكل الهوية الإنسانية للمجتمع المسلم في عصره الذهبي.

٦. ظهور موجة من الإعجاب بالغرب والحياة المادية الغربية ومظاهر التكنولوجيا الأمر الذي ساعد على استنساخ النظم الغربية والمطالبة بتفعيلها في الحياة الإسلامية.

٧. ظهور الحركة الاستعمارية الغربية والقوى الكبرى في العالم مع مظاهر الغزو العسكري ومحاولة إخضاع العالم الإسلامي إلى الهيمنة الغربية

والاستئثار بثرواته والسيطرة على منابع الطاقة ومنابع النفط في العالم الإسلامي[1].

كل هذه العوامل والمظاهر حفزت المصلحين من المفكرين المسلمين إلى البحث عن مشروع لإنقاذ الأمة، وبسبب التحديات المعاصرة ظهرت الحاجة إلى تجديد في الخطاب الإسلامي والتكيف مع التطورات الثقافية والوعي العام في العالم مع المحافظة على الأصول والهوية الإسلامية.

أسباب ظهور الفكر الإسلامي الحديث:

مما تقدم يمكننا أن نوجز أسباب ظهور الفكر الإسلامي الحديث بما يأتي:

١. انتشار الجهل والتخلف في الأمة دفع بعض العلماء إلى تبني مشروع الإصلاح الواقع المتراجع في الأمة واعتمد المشروع الإصلاحي عليّ الأصول الإسلامية من الكتاب والسنة وتحقيق المصالح المعتبرة.

٢. ظهور الحركة الاستعمارية التي حاولت إخضاع العالم الإسلامي إلى الغرب والهيمنة على مقدرات العالم الإسلامي وثرواته الاقتصادية واستغلاله لصالح النظام العالمي الاميريالي مما دفع العلماء المسلمين إلى النهوض المواجهة هذا التحدي.

٣. حركة النهضة الأوربية التي حققت تقدماً وتطوراً في مجال العلوم الطبيعية الأمر الذي حفز علماء الإسلام للمناداة بمشروع نهضة يحقق تطوراً كما حقق علماء الغرب.

---

[1] ينظر: قضايا في الفكر الإسلامي المعاصر، د. محسن عبد الحميد: ص٨٥ وما بعدها .

المطلب الثاني: الفكر الإسلامي الحديث التحدي والاستجابة

اولاً: التعددية والتعايش في الفكر الاسلامي.

التغيرات التي حدثت في العالم العربي والإسلامي أفرزت واقعاً تغيرت فيه الكثير من المفاهيم، وظهرت تيارات تشكل في الواقع نسبة مؤثرة، وهذه التيارات لا تؤمن بما يؤمن به التيار الإسلامي التقليدي، فهي لا تؤمن بالكثير من القضايا التي يؤمن بها الإسلام السياسي، بل انها تطالب بإقصاء المشروع السياسي في الإسلام، وتدعو إلى العلمانية أو المدنية أو الديمقراطية وغيرها من المصطلحات التي لم يعهدها الفكر الإسلامي في تاريخه مع ان هذه التيارات تدعي الإيمان بالله والإسلام.

من هنا وجد الفكر الإسلامي انه يواجه تحديات تؤدي إلى الاصطدام وبالتالي تحدث مفاسد كبرى، وتبلور اتجاهٌ اجتماعيٌ يكره الإسلام أو يشيع الكراهية، ومن هنا تحدث الفتنة، وعلى هذا الأساس وجد بعض المفكرين الإسلاميين ان المرونة التي في الإسلام ورعايته للمصالح توجب على الإسلاميين القبول بالحلول الوسط، ووضعوا بعض الأسس للتعايش، والقبول بالآخر من أجل مصالح كبرى ودفعاً لفتن كبرى، ومن هذه الأسس الفكرية:

١. إن الإسلام دين دعوة وهداية وأساس عمله قبول الآخر له فإن لم يقبله فلا إكراه في حمله عليه قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[١]، وعلى هذا الأساس فإن استخدام العنف في فرض الإسلام لم يعهده المسلمون على اختلاف عهودهم، وما يفسره البعض من أن الجهاد يفرض على المسلمين مقاتلة الكافرين، فهذا اقتطاع للنصوص وأعمالها في غير مناسبتها، ثم ان الدعوة في مكة أو المدينة لم تمارس الإكراه على الناس، وان ما ينقل من الأخبار عن معارك المسلمين فهي في سياق نشر الدعوة بشكل استثنائي وليس أصلاً، فالعنف كان ملازماً للمعارك والمعارك حدثت بعد تكون الدولة والقوة في الإسلام، ثم ان المتفق عليه ان الإسلام انتشر في جنوب شرق آسيا والهند عن طريق التجار وليس عن طريق السيف والمعارك، كل ذلك يؤكد على أن الأصل في الإسلام الدعوة بالحسنى أو التي هي أحسن، كما أكد على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[٢] ولن تكون الحروب وإراقة الدماء هي الحسنى، وعلى هذا لابد أن تجنب المجتمعات الإسلامية العنف.

٢. إن الاعتراف بالآخر هو شرط قاعدة التعايش فالذي لا تعترف به هو أيضاً ليس مستعداً أن يعترف بك، والمحصلة هي الخصام والتصادم، وفي هذه الحالة ستجد القوى المعادية للمسلمين الفرصة مناسبة لبث

---

[١] سورة البقرة: من الآية (٢٥٦).

[٢] سورة المؤمنون: من الآية (٩٦).

الفرقة وتجذير الصراع وإشاعة الكراهية بين مكونات المجتمع، ثم إن العالم اليوم تحول إلى قرية صغيرة والقوى الكبرى التي تهيمن على العالم والإعلام سوف تدعم كل صوت للأقليات والمعارضين للخيار الإسلامي، فأصبح الفكر الإسلامي محصوراً بين خيارين، أما تفكيك المجتمع وتدميره بالعنف والصراع أو القبول بالتعددية والتعايش مع الآخر، وفي الأولى مفسدة عظمى، وفي الثانية مصلحة ضرورية للمحافظة على الحياة والبقاء، فالتعددية فرضت نفسها، ومن شروطها أن يعترف كل طرف بالآخر من غير مصادرة رأي ولا محاربة موقف، وأن يكون الاحترام والتعايش والثقة هو القاعدة الأساس، وهذا جزء من أمن المجتمع الذي بدونه يتعذر استمرار الحياة قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[1]، ثم ان التعددية تعني الحرية، وهي مبدأ أساس من مبادىء الإسلام ولا قيمة للفكر ولا للإنسانية بلا حرية، وإن العالم الإسلامي منذ أن وجد إلى الوقت الحاضر فيه أديان ومذاهب وأعراق مختلفة وعليه فإن صبغ الحياة بلون واحد من التفكير يعد ضرباً من ضروب الوهم وهو مخالف للفطرة التي خلق الله الناس عليها.

٣. إن المصالح العليا لأي بلد أو مجتمع لابد أن تكون أساساً في بناء مشروع حضاري وبدون الاتفاق على هذه المصالح فإنه يتعذر قيام

[1] سورة قريش: الآيات (٣، ٤).

كيان أو بناء دولة، ومن هذه المصالح الاستراتيجية هي وحدة الأمة والحفاظ على أمنها واستقرارها وتنمية الثروات والاستقلال ورفض التبعية والتمسك بالإجماع العام الذي يحافظ على وحدة البلد، ويعزز المواطنة وينمي روح الوحدة والأخوة والتسامح، وهذه المصالح العليا والمحافظة عليها يكون عن طريق التعددية والإيمان بها وزرع الثقة بين المكونات والعدالة في تعامل المركز مع المكونات مهما كان حجمها، فالأكثرية في ظل الوعي الصحيح هي التي تحافظ على حقوق الأقليات وتدافع عنها.

٤. إن التعددية التي يؤمن بها الفكر الإسلامي هي تعددية برامج ومشاريع التي من شأنها أن تساهم في تطور الإصلاح الاجتماعي وفي التاريخ الإسلامي شواهد على اعتماد الدولة الإسلامية على كفاءات من ديانات أخرى، فكان من الأطباء من اليهود والمسيح، وكذلك أدى المسيحيون في العالم الإسلامي دوراً مهماً في عملية ترجمة الكتب في الفلسفة والطب والعلوم الأخرى من السريانية إلى العربية، وهذه هي تعددية الكفاءات التي لا تسأل عن المعتقد أو المذهب وإنما على الكفاءة والعلم، وكثيراً ما كنا نقرأ في التاريخ أن كاتب الخليفة أو مستشاره كان من أتباع الديانة المسيحية أو اليهودية، ومن المؤسف أن نجد أن الغرب اليوم يستقبل الكفاءات من بلاد المسلمين ويوفر لهم مجال الإبداع والتطور العلمي والعيش الآمن الذي يفتقده العالم الإسلامي الذي أصبح مركز طرد للطاقات والكفاءات بسبب الخوف

من الاستبداد سواء السياسي أم المذهبي أو بسبب غياب سلطة القانون وضعف الإيمان في النفوس الأمر الذي أشاع الظلم وضياع الحقوق، وكذلك هناك تعددية في داخل البناء الإسلامي فلا يوجد اتجاه واحد في المجتمع الإسلامي، فهناك اتجاه اخباري عند الشيعة يؤمن باتباع الرواية ويرفض الرأي والعقل ويقدس الرواية، وكذلك هناك اتجاه أصولي عند الشيعة يؤمن بالرأي وحركة العقل، وكذلك هناك اتجاه سلفي عند السنة يؤمن بالرواية ويقدمها على العقل، وهناك اتجاه عقلاني، وكذلك هناك من يولي الاهتمام للمسألة الاجتماعية والتربوية والروحية وآخر للمسألة السياسية وآخر يولي الاهتمام لمسألة حقوق المرأة وهكذا في قضايا التنمية والعمل الثقافي والتعليم وما إلى ذلك، والتعددية بهذا النمط تعكس تنوعاً وتخصصاً وتكاملاً يعبر عن حالة حضارية متقدمة تدفع بالمجتمع نحو مزيد من التطور والنمو والنهوض)[1].

[1] ينظر: الفكر الإسلامي قراءة ومراجعات، زكي الميلاد: ص٣١، وفي الكتاب المزيد من الآراء في الفكر المعاصر.

ثانياً: حماية الاسلام للحقوق الفكرية:

قبل بيان موقف الإسلام من الحقوق الفكرية لا بد من بيانها وبتعبير بسيط هي: (الناتج الذهني مما يدخل في معنى الملكية كما يدخل في معنى الحق، وهو نوع خاص من الحقوق والأملاك والأموال التي اعتبرها الشارع، حيث أن كل نتاج ذهني إنما يرتبط بصاحبه ويتأثر به، ولصاحبه حق ملكيته والانتفاع به، وصاحبه مجزي عليه بالخير إن كان خيراً وبالسوء إن كان شراً أو سوءاً. ولهذا النوع من الملك خصائصه الذاتية المميزة له عن غيره من المملوكات بحسب طبيعة محله ومجاله ومضمونه)[1].

وبعد ان عرفنا معنى الحقوق الفكرية نجد أن من الأمور التي أولها الإسلام أهمية كبيرة هي احترامه للحقوق، وهنا لم يحصره في شيء معين، وانما جميع الحقوق خاضعة لمبدأ الحماية، فلا يجيز الإسلام الاعتداء على اي حق سواء كان مادي أو معنوي، ومن الأمور التي حرص عليها الاسلام الحقوق الفكرية، ولذا قال بعض العلماء في مسألة الحقوق الفكرية: ان المعلومة مباحة والصيغة حق، فلا يجوز لاحد أن يعتدي على صيغة ما في علم ما ويدعي ان هذه المعلوم قام هو بنشرها.

---

[1] مجلة العلوم الإسلامية: مفهوم حقوق الملكية الفكرية: وضوابطها في الإسلام: الدكتور إحسان سماره ص٣٠.

واستدلوا على حماية الإسلام للحقوق من خلال القاعدة الفقهية المشهورة(لا ضرر ولا ضرار) المستوحاة من حديث الرسول الكريم، وبعض المذاهب استفادت من المصالح المرسلة .

ثالثاً: مشروع التقريب بين المذاهب الاسلامية:

انطلاقا من شعار قوتنا في وحدتنا نجد ان الامة اليوم في امس الحاجة الى وحدة الصف، والوقوف في خندق واحد لصد الهجمات الغربية على الاسلام، وهذا لا يتحقق ما لم نلم شعثنا ونعيد امجاد اجدادنا، وهذا لا يكون الا من خلال تبني فكرة التقريب بين المذاهب، لان التقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية يحقق الوحدة الاسلامية من خلال تعرف بعضهم على البعض الآخر عن طريق تحقيق التآلف والأخوّة الدينية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة. إذ يحاول هذا المشروع تحقيق الوحدة الإسلامية والتي تعني: التعاون بين أتباع المذاهب الإسلامية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة واتخاذ موقف موحد من أجل تحقيق الأهداف والمصالح العليا للأمة الإسلامية والموقف الموحد تجاه اعدائها مع احترام التزامات كل مسلم تجاه مذهبه عقيدة وعملاً.

وكان خير مثال على الواقع التطبيقي هو انشاء المجمع العالمي للتقريب والذي يضم بين صفوفه العشرات من علماء المذاهب الإسلامية

من مختلف دول العالم أحد المراكز المهمة التي عرفت بدعوتها للتقريب والوحدة في العالم الإسلامي ومهدت للتعامل البناء بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة، ويهدف المجمع الى النهوض بمستوى التعارف والوعي وتعميق التفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية وتعزيز الاحترام المتبادل وتوطيد أواصر الأخوة الإسلامية بين المسلمين مع تجنب التمييز بشأن انتماءاتهم المذهبية أو القومية أو الوطنية بغية تحقيق الأمة الإسلامية الواحدة.

ومن خلال الوقوف على تطلعات المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية نستطيع ان نبين مدى اهمية هذا المشروع إذ يسعى الى تحقيق النقاط التالية على مدى السنوات العشر القادمة:

١. السعي إلى جعل الوضع الذي يعيشه المجتمع الإسلامي المعاصر أقرب ما يكون إلى ظروف ووضع عصر الرسول الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم) من حيث التأسي بجوانب الأخوة الدينية والقضاء على أجواء العداوة والعصبية الطائفية بين أتباع المذاهب الإسلامية.
٢. توسيع نطاق التضامن القائم فعلاً بين بعض المذاهب الإسلامية ليشمل كافة المسلمين وسائر المذاهب الإسلامية.
٣. تقبل عامة المسلمين للخلافات بين المذاهب والمنبثقة عن الاجتهاد المنضبط.

٤. اقتداء الأتباع بسلوك أئمة المذاهب الإسلامية بعضهم مع بعض وتوسيع نطاق العمل به بين أتباع المذاهب اليوم.

اما مجالات التقارب:

فتشمل جوانب حياة أتباع هذه المذاهب كافة، إذ يمكن الإشارة إلى الجوانب التالية:

العقائد:

للمذاهب الإسلامية كافة رؤية مشتركة واحدة حول الأصول العقائدية والأركان الإسلامية، والخلاف في فروعها لا يخل بأصل الإسلام والأخوة الإسلامية، والانطلاق من الامور المشتركة التي لا يختلف فيها مسلم.

الفقه وقواعده:

ان الفقه ميدان رحب، وان كل المذاهب قائمة على مبدأ الاجتهاد، وان كل مذهب يعتمد في استنباطه على اصول مشتركة مثل الكتاب والسنة، كذلك الفروع ووفقاً لوجهة نظر محققي فقهاء المذاهب، فإن الأبواب الفقهية تتضمن نسبة عالية من النقاط المشتركة، والاختلاف في بعض المسائل الفقهية أمر طبيعي مردّه إلى فهم الفقهاء واجتهاداتهم، علما ان الاختلاف في بعض المسائل الفرعية واقع في داخل المذهب الواحد فلا يكون الاختلاف في الاستنباط نقطة خلاف بين الامة .

الأخلاق والثقافة الإسلامية:

ان الموروث الاخلاقي الذي تركه الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وآل البيت والسلف الصالح لحق للامة ان تفتخر به وتنطلق منه لبناء حضارة انسانية رائعة، وليس للمذاهب الإسلامية خلاف في الأصول الاخلاقية والثقافة الإسلامية على الصعيد الفردي والاجتماعي والرسول الأكرم (صلى الله عليه واله وسلم) أسوة الأخلاق لدى المسلمين كافة.

التاريخ:

ولا ريب أن المسلمين يتفقون على وحدة المسيرة التاريخية في مفاصلها الرئيسة والاختلافات الفرعية والتفصيلية يمكن طرحها في جو هادئ والوصول الى موارد كثيرة للاتفاق، وعلى أي حال فيجب أن لا تترك الخلافات آثارها السلبية على المسيرة الحاضرة للأمة.

رابعاً: المواقف السياسية للأمة الإسلامية ومبادئ الاصلاح:

لا شك أن المسلمين كافة لهم عدو مشترك، ينبغي لهم الوقوف بوجهه في صف واحد كأنهم بنيان مرصوص. علماً أن سمات وميزات الأمة الإسلامية تحتم هذه الضرورة فضلاً عن أنه لم يرد منع في أي من المذاهب الإسلامية في هذا المجال، ولذا ينبغي لقادة وعلماء الإسلام والمفكرين الإسلاميين تبني سياسة موحدة تجاه الأعداء.

المبادئ الأساسية في الاصلاح

المبادئ والقيم التي ينطلق منها في المنهج الإصلاحي وتنفيذ البرامج انطلاقاً مما سبق بالمبادئ والقيم أدناه:

١. ضرورة التعاون الكامل في الموارد التي يتفق المسلمون عليها.

٢. ضرورة اتخاذ موقف منسق وواحد في مواجهة أعداء الإسلام.

٣. تجنب تكفير وتفسيق المسلمين الآخرين ورميهم بتهمة البدعة.. علينا كمسلمين القبول بمشروعية الاجتهاد في إطار المصادر الإسلامية الرئيسة أن نقبل مستلزمات هذا المبدأ وتبعاته حتى لو كان الرأي الإجتهادي خطأ في نظرنا. لذا ينبغي الهبوط بمرتبة الاختلافات من الكفر والإيمان إلى مرتبة الخطأ والصواب.

كما لا ينبغي لأحد من جانب آخر أن يكفّر الآخر بسبب لوازم حديثه أو رأيه تقود حسب رأينا إلى إنكار أصول الدين، فقد يكون غير ملتزم بهذه اللوازم.

٤. التعامل باحترام عند الاختلاف.. حينما يوصي الإسلام بنوع من التحمل الديني في علاقاته مع باقي الأديان ويطلب من المسلمين أن لايسيئوا للمقدسات الفكرية والعقائدية الباطلة للآخرين؛ فإن من الأولى

أن يؤكد في إطار العلاقات بين المسلمين على مبدأ تجنب الإساءة لمقدسات أتباع المذاهب الإسلامية وأن يعذر بعضهم الآخر فيما يختلفون فيه.

٥. حرية اختيار المذهب.. إن مبدأ حرية اختيار المذهب مبدأ عام في العلاقات الفردية، فكل شخص حر في اختيار مذهبه الإسلامي، ولا ينبغي للمنظمات والحكومات أن تفرض على أحد مذهباً دون غيره بل تعترف بالمذاهب الإسلامية جميعاً.

٦. حرية العمل بالأحكام الشخصية.. فيما يتعلق بالمسائل الخاصة بالأمور الشخصية، فإن أتباع المذاهب الإسلامية يتبع كل منهم الأحكام المتعلقة بمذهبه، سوى ما كان مرتبطاً بالنظام العام حيث تكون كلمة الفصل للقوانين المنصوص عليها في بلادهم التي تديرها حكومة شرعية.

٧. استناداً لما ورد في سورة الزمر المباركة (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)[١]، دعا القرآن الكريم المسلمين إلى اعتماد مبدأ الحوار السلمي مع الكفار وأهل الكتاب بعيداً عن التهويل والضوضاء وذلك من أجل بلوغ الحقيقة. من أجل ذلك وجب على المسلمين من باب أولى أن يتم حل اختلافاتهم عن طريق الحوار السلمي ومراعاة آدابه فيما بينهم.

[١] سورة الزمر/ الآية (١٧)

٨. لزوم اهتمام جميع المسلمين بالجانب العملي للتقريب وتجسيد هذه القيم في حياتهم والسعي الشامل لتطبيق الشريعة الإسلامية في كل جوانب الحياة.

الاتجاهات المتطرفة التكفيرية.

ظهر في العالم الاسلامي اتجاهات متطرفة انحازت إلى النص الديني ظاهريا ورفضت الاندماج والتحاور والتعايش مع المجتمع وآمنت بالعنف طريقاً لتحقيق أفكارها وما تؤمن به وكان من أهم ما يميزها، هو إنكفائها على ذاتها وانغلاقها على نفسها وانعزالها عن الواقعين، الواقع الإسلامي والواقع الأوربي، بسبب توقفها في صحة إسلام الأول، وتصريحها عن كفر الواقع الثاني؛ لذا تجد أن نشاطاتها تتركز في نطاقات محدودة، مبهمة وغير معروفة.

وكيفما يكن الأمر فإن هذه المؤسسات، استغلت المشروعية القانونية التي منحتها الحكومات الأوربية لها، وساعدتها في فتْحها، وكان جزاء القائمين عليها لتلك الحكومات(جزاء سنمار) حيث اتخذتها غطاءا لترويج الإرهاب والتطرف، والتخطيط للعمليات الإرهابية في البلاد، التي منحتهم حق إقامة وفتح مراكزهم ومؤسساتهم، وسعت الى تنفيذها فيها وفي غيرها من الدول الأوربية، وأصبحت موضع تهديد لأمنها القومي وأمن شعوبها.

لذا فقد كان من نتيجة التطرف التي اتخذت منه هذه المؤسسات شعارا ومن الإرهاب دثارا، أن حوربت في تلك الدول، وطُردت منها حتى إذا ضاقت السبل على أربابها، عادت لتنَفذ مآربها في بلادها.

ويواجه التطرف الديني والاتجاه الذي أتى بالعنف المجتمعات الاسلامية أكثر من غيرها فهو يتصور بان المجتمعات الاسلامية غالبيتها مرتدة ويجب أن يقام عليها الحد فالمجتمع الاسلامي أمامه خياران أما متابعة هذا الاتجاه أو الموت والقمع، من هنا شكلت هذه الظاهرة تهديداً للفكر الإسلامي.

الاتجاهات المعاصرة وأثرها في الفكر الاسلامي

اولاً: العولمة.

من المفاهيم الحديثة التي أخذت حيزا واسعا من الفكر الإنساني المعاصر هو مفهوم العولمة، التي يرجع تاريخ ظهوره في الساحة الفكرية والثقافية، الى أكثر من عقد من الزمان، ويذهب بعض علماء التاريخ الى أن العولمة ـ كظاهرة وليس كمفهوم ـ ترجع الى بدايات القرن السادس عشر الميلادي، وتهدف الى انتشار المعلومات بين الناس، على النحو الذي تكون من خلاله متاحة للجميع، وإزالة الحواجز والحدود بين البلدان، وزيادة نسب التشابه بين الجامعات والمجتمعات وسائر المؤسسات.

بالتالي فالعالم ضمن معطيات العولمة هو بمثابة قرية صغيرة متوحدة و متجانسة نتيجة لسرعة الأتصالات و الإعلام الاكترونى وصراع تملك الفضاء.

فالعولمة إذن تهدف الى توحيد المجتمعات بنظام واحد قائم على الإقتصاد والتطور التكنواوجي والتوجه المعرفي والفكري.

وشخَص بعضهم العولمة على أنها هناك ثورة علمية تكنولوجية و اجتماعية تغطى العالم بشبكة من المواصلات الاتصالات خلفت أنماطا جديدة مـن القيم الإجتماعية والمفاهيم السلوكية، التي يؤهلها، لان تكون ذات وجود مؤثر في مختلف جوانب الحياة الإنسانية.

ومع كل ما يبدو للعولمة من أسباب الجذب والإقناع، لكنها لن تنجح في الحيلولة، دون استمرار التقسيم والتمييز المفروض على الواقع العالمي، وأعـني به عالم الدول الكبرى ذات المصالح المتبادلة والمؤسسات العملاقة، وعـالم الدول النامية، التي يبدو أنها ستظل تعاني من التبعية للدول الكبرى، حتى في ظل انتشار مفهوم العولمة، ولعل هذا ما دفع البعض الى فهمها، فهـما يتناغم والتقسيم الدولي القائم على أساس عالم القوى، فهناك العالم الكبير وهناك العالم الصغير، وأن العـالم الكبير- في ضوء الفهم المذكور- يبقى مهيمنا في فرْض كل قيمه وثقافته وأخلاقه ونظمه الإقتصادية والإجتماعية والسياسية، فهي إذن تبعية من نوع جديد، تحتفظ للدول

الكبرى بمكانتها، وتدفع بالدول الصغرى نحو لون جديد من التبعية. وبناء على ذلك في تصور هؤلاء وما يسوق له الغرب خصوصاً بعدما كتب صموئيل هنتكتن كتابه صدام الحضارات، فان الصدام قادم لا محالة بين الحضارة الغربية وحضارتين أو ثلاث في طريق الصعود وهي الحضارة الصينية والحضارة العربية الإسلامية وكذلك عندما كتب فوكو ياما كتابه (الرجل الاخير) وبحسب تصوره سيكون الرجل الأبيض هو أخر الرجال الذين ينتمون عرقيا وحضاريا إلى الحضارة الغربية هو الرجل الأخير وكذلك الممارسات التي يحذر منها علماء الطبيعة من أن العولمة ستؤدي إلى اختلال بالتوازن البيئي نتيجة العدوان على البيئة من قبل دول المركز الصناعية التي تقود العالم إلى المجهول والكارثة: كل ذلك عمق مشاعر الكراهية والعداء للعولمة، وفي العالم الإسلامي الذي كان هو المستهدف الرئيس من العولمة ظهرت اتجاهات تحذر من الظاهرة وتعدها تحدياً وجودياً وتهديداً خطيراً تجاه العالم الإسلامي ومع ذلك ظهر في العالم الإسلامي من ينادي بالاستفادة من تسهيلات العولمة وتحول العالم إلى قرية صغيرة، فالعولمة ليست شراً محضاً ولكن باستطاعتنا ان نتعامل معها وتوظف الجوانب الايجابية فيها لمصلحة التطور العلمي في بلاد المسلمين مع المحافظة على الهوية الإسلامية والخصوصية العقدية، لذلك هؤلاء يعدون المشكلة في العولمة هي في المتلقي أو الاستجابة للعولمة فمنهم من انخرط فيها وذاب في حركتها وفقد ثقافته وهويته ومنهم من حافظ على هويته وقيمه ووظف

التطور العلمي والتكنولوجي لمصلحة بلاده ومجتمعه، وبناء على ذلك واجه الفكر الإسلامي تحدياً جديداً متمثلاً بالعولمة هل يواجهها ويحاربها؟ أم يقبلها بكل ما فيها؟ أم يقف موقفاً انتقائيا يأخذ ما ينفعه ويتجاوز مشكلاتها ونقاط مخالفتها للقيم الإسلامية؟ أكثر الإسلاميين يؤيدون الموقف الثالث وقلة انحازت إلى الموقف الأول وهو مواجهة العولمة والتصدي لها! واتهم الذين قبلوا بها بأنهم منافقين وخارجين على القيم الإسلامية ومعظم هؤلاء المؤيدين للعولمة كانوا من الذين آمنوا بالخيار الغربي وهو العلمانية وأعلنوا موقفهم بصراحة بأنهم لا يؤمنون بتدخل الدين في السياسة والحكم.

ولكي تكون الصورة واضحة جلية لنا لابد،بعد بيان مفهوم العولمة،من التطرق الى أهدافها التي يمكن تلخيصها كالآتي:

١ـ يكون السوق التجاري مفتوحا موحدا بين كل دول العالم من غير فواصل أو عوازل جمركية أو إدارية أو نحوها.

٢ـ توحيد العالم بحيث يكون كتلة واحدة من حيث المصالح والمنافع ودرء الأخطار التي تهدد الأمن والإستقرار العالمي.

٣ـ تشكيل نوع من التجانس العالمي المبني على التنوع والتعدد، والسعي للإرتقاء بحياة الإنسان.

٤. توجيه الطاقات نحو إيجاد لغة واحدة مشتركة، يتم استخدامها سواء على مستوى البشر، على مستوى الآليات الألكترونية.

٥. تحقيق الوصول الى وحدة إنسانية تهدف الى تعميق الإحساس بوحدة البشر ووحدة الحقوق.

٦. إزالة كل أشكال التعصب والتمييز العنصري، من أجل الوصول الى عالم انساني موحد تذوب معه كل أنواع الفوارق. وهذا الرأي يبنى على رؤية إيجابية للعولمة عند بعض المفكرين المسلمين.

والذي يهمنا في المقام هو العولمة الفكرية، التي ـ وفي ظل المعطيات الماثلة آنفا في مفهوم العولمة ـ فإنها ستضع الفكر الإسلامي في موضع الإختبار والمواجهة ؛لان عملية الإنصهار الكبرى ـ التي سيواجهها العالم، في ظل العولمة المفترضة ـ

ستجعل ـ الفكر الإسلامي ـ فكرا مضمحلا، وضائعا في منظومة الأفكار العالمية، فتضيع معها الملامح المميزة لهذا الفكر، وربما سيزحف الضياع ليستوعب ثوابت الشريعة، التي تشكِل المنهل الأساس للمنظومة الفكرية الإسلامية.

ثانياً: الديمقراطية والفكر الإسلامي.

من النظم التي وفدت إلى العالم الإسلامي من الغرب هي الديمقراطية، وهي نظام سياسي (يعني حكم الشعب نفسه بنفسه)[1]، وعندما جاءت الديمقراطية كان الواقع الإسلامي يعاني التخلف والتراجع في ميادين الحياة كافة فتولد شعور في العقل الثقافي الإسلامي مفاده إن النظم الغربية هي النظم التي تحقق تطوراً وتنمية والاصلاح الذي تطلبهُ الحركات الاصلاحية يتحقق عن طريق استنساخ التجربة الغربية في فلسفة الحكم يضاف إلى ذلك انتشار ظاهرة الاستبداد السياسي في النظم السياسية العربية أو الإسلامية التي رفعت من شأن الحاكم وأعطته منزلة التقديس، كل هذه الأسباب وأسباب أخرى أدى إلى اقتناع طبقة من المثقفين في البلاد العربية بالإيمان بالديمقراطية الغربية، ولعل من أهم مبادئها:

١. الشعب هو المرجع في الحكم وصناديق الاقتراع هي المرجع في شرعية الحاكم ولا توجد سلطة أعلى من سلطة الشعب.
٢. إن الأغلبية تتمتع بامتياز يؤهلها إدارة الحكم والهيمنة على صناعة القرار على أن تكون هذه الأغلبية هي سياسية وليست دينية أو مذهبية؛ لأن ذلك من شأنه تأجيج الصراع والتنافس على السلطة.

---

[1] الأمة هي الأصل، د. احمد الريسوني، الشبكة العربية للأبحاث: ص٣٢ .

٣. الفصل بين السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية، وهو أمر مهم في النظام الديمقراطي، وبناء على هذه المبادئ حاول الفكر الإسلامي التكيف معها، وأعطى تأصيلاً شرعياً لحكم الشعب عن طريق مبدأ الشورى وإن كان النظام السياسي في الإسلام تتنازعه اتجاهات حول الشورى فمنهم من يقول بأن الشورى ملزمة وفريق آخر يقول بأن الشورى معلمة أي لا تقتضي الإلزام للحاكم بأن ينزل على رأي الشعب ولكن عليه الاستئناس به.

والمعروف من تاريخ التشريع في الفقه الإسلامي بأن المجتمع الإسلامي محكوم بمبدأين في المرجعية الشرعية وهما النص أو الوحي، والعقل أي الاجتهاد فيما لا نص فيه، وفي حديث معاذ عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن وسأله بم تحكم؟ قال: بكتاب الله، فإن لم تجد قال بسنة رسول الله ﷺ قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو!)[1]، وفي هذا الحديث تأصيل لمسألة الاجتهاد وللحق فإن النص هو الأساس ولكن مع النص تبرز مشكلات منها ثبوت النص ودلالته وتفسيره والكثير من المسائل الفقهية مثل تحقيق المناط وتنقيحه في استخراج العلة، وهنا يكون

[1] الحديث مشهور وورد بلفظ مقارب في سنن أبي داود والترمذي، وان معناه صحيح ولو ضعفه بعض أهل الحديث وقد اعتمده الكثير من الفقهاء والأصوليين، ملتقى أهل الحديث، الشبكة العنكبوتية.

الاجتهاد والاختلاف أمراً لا يمكن تجنبه، فعلى هذا ينفتح باب للتوسعة والتكامل المعرفي وتحقيق مصالح المجتمع كمؤثرات فاعلة في التكيف مع الواقع المتغير والمحافظة على الهوية الإسلامية أي المحافظة على الأصول مع المعاصرة والتعامل مع الواقع، ولذلك نجد ان فلسفة التشريع الإسلامي مرنة ومنفتحة على الواقع وتعتمد على منهجية التيسير ورفع الحرج وتبتعد عن التشديد والتضييق، وعلى هذا الأساس بنيت القاعدة الفقهية (إذا ضاق الأمر اتسع)[1] من هنا كان أكثر الأحكام مرتبطة بالاجتهاد والنظر؛ لأن النصوص محدودة والحوادث غير محدودة، واعتمدت عملية التشريع على المشاركة والشورى حتى بين القضاة والحكام الذين يكونون أقرب إلى مقاصد الشرع والدين، وعلى ذلك ترسخت الشورى في التأصيل الشرعي عند جميع المدارس والمذاهب الإسلامية وعلى الخصوص عند فقد الوحي أو غياب المعصوم فإن الحاكم في تقرير المسائل الأسلم أن يرتبط بالشورى وممارستها.

[1] القواعد الفقهية في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان: ص٦٧، وهي فرع من قاعدة أكبر وهي (المشقة تجلب التيسير).

شبهات حول الديمقراطية:

واجهت الديمقراطية في بلاد المسلمين اعتراضات كثيرة وشكك الكثير في معارضتها للإسلام جملة وتفصيلاً، ولعل أهم هذه الشبهات هي:

١. إن الديمقراطية نشأت في بيئة غربية وثنية أو مسيحية ثم في الآخر جاءت من بيئة علمانية، فهي بدأت في البيئة الرومانية الوثنية ثم المسيحية ثم العلمانية ولا شك ان هذا سيؤثر في تأسيس فلسفة الديمقراطية وأصولها وتوجهاتها، والحقيقة ان هذا الانتقال يؤكد على أن الديمقراطية لا ترتبط بالعقائد الدينية فهي تعبر عن حالة من تطور الوعي الغربي فهي لا دين لها كما يقولون، والمسلمون كما هو معروف لديهم إن الإسلام يهدف إلى تحقيق المصالح ويدرء المفاسد كما هو ثابت في القاعدة الشرعية (إن الشريعة كلها مصالح أما جلب منفعة أو درء مفسدة وكلاهما يحقق المصلحة)[١]، وكذلك (إن الحكمة ضالة المؤمن انّا وجدها فهو أحق بها أو أخذها ولو من أهل النفاق)[٢]، كل هذه المؤشرات تؤكد على أن الديمقراطية في جوهرها تحقق مصلحة

---

[١] وهذه القاعدة لها فروع منها (درء المفاسد أولى من جلب المصالح)، ينظر: القواعد الفقهية، د. عبد الكريم زيدان: ص١٠٥ .

[٢] الحديث يروى عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، المفيد، مسند الإمام علي (عليه السلام)، الشبكة العنكبوتية .

المجتمع وتبعده عن الاستبداد وقمع الحريات، وهي من مبادىء الإسلام إذا سلمت من التطويع والتحريف في التطبيق.

٢. إن الديمقراطية تقرر مبدأ حكم الأغلبية وفي هذا الأمر مصادرة لحق الشرع في حكم المجتمع والهيمنة على توجهات الفكر ومقاصد الحياة، والحق ان الأغلبية إذا جردت من التأثير الخارجي فلاشك انها ستنحاز إلى الهوية الإسلامية وحتى وإن كانت غير معصومة فهل الأقلية معصومة؟ ولذلك لابد من الموازنة ووضع إطار من الضمانات لكي لا تتحول الأغلبية إلى أغلبية استبدادية، كما يدعو الفكر الماركسي ويؤمن بدكتاتورية البرولتاريا، ونعود ونؤكد بأن اختيار الإسلام لا يمكن أن يكون بالقوة أو بالإكراه.

٣. ومن المشكلات التي أثيرت على الديمقراطية هي ان حكم الأغلبية سيؤدي إلى تعارض مع الإسلام؛ لأن تعالى يقول: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ ﴾[1]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾[2]، والحقيقة ان في هذا الاعتراض وجاهه ولكن لو عدنا إلى أصول ومقاصد الإسلام نجد أن الإسلام

---

[1] سورة الأنعام: من الآية (١١٦).

[2] سورة يوسف: الآية (١٠٦).

يحكم حياة الناس باختيارهم فلو ان مجموعة من الناس اختارت اتجاهاً يخالف الإسلام فما هو السبيل لمواجهة هكذا احتمال؟

إن الإسلام يؤكد على ان الغاية الأساس من نزوله هو رحمة الناس وانقاذهم فليس من المعقول أن نفرض على الناس التعاليم بالقوة، وإنما يحمل الناس على الالتزام بالتدريج واقناع الناس وإعادتهم إلى رشدهم بالحكمة ودفعهم إلى تصحيح علمهم ومعرفتهم بالإسلام ثم بعد ذلك نأتي إلى التطبيق.

وفي حادثة إسلام النجاشي وقد كان ملكاً على الحبشة فإنه عندما أسلم في الخفاء ولم يعلن الرسول ﷺ إسلامه إلا بعد موته بعد أن صلى عليه صلاة الغائب، وكذلك المسلمون في الحبشة لم يلزموا النجاشي بتطبيق الإسلام وأن يحكم بالإسلام مع انه كان ملكاً مسلماً، ولكن الغالبية لم تكن على الإسلام، وكذلك الرسول ﷺ في مكة لم يحاول أن يطبق الإسلام على أهل مكة ولا غيرهم.

وفي هذه الأمثلة دلالة على مراعاة الأغلبية وعدم زج المجتمع في صراعات قد تؤدي إلى تدمير النسيج الاجتماعي ولن تحقق مقاصد وأهداف الدين)[1].

[1] ينظر: الأمة هي الأصل، د. احمد الريسوني: ص٤٩ وما قبلها وما بعدها .

وعلى هذا الأساس استطاع الفكر الإسلامي أن يمد المجتمع الإسلامي بتأصيلات معتبرة منحت المسلمين القدرة على التعايش مع الواقع بدون الاصطدام بثوابت الإسلام والمحافظة على الهوية الإسلامية.

ومن الحركات التي واجهت العالم الإسلامي، وشكلت ضغطاً فكرياً استدعى تطوير الخطاب الإسلامي هي العلمانية.

ثالثاً: العلمانية والحداثة.

١. **العلمانية**: وهي حركة فكرية غربية تدعو إلى عزل الدين عن السياسة، وانتقلت العلمانية إلى العالم الإسلامي في بداية القرن العشرين الميلادي، وهي حركة فكرية سياسية قامت على أنقاض الدين والفكر اللاهوتي المسيحي، وتعرفها دائرة المعارف البريطانية: هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا، ومن التعريف نجد أن هدف العلمانية هو صرف الناس عن الإيمان بالغيب وبوجود قوى غيبية وإرادة صممت العالم لغاية غير مادية[١].

وانتشرت العلمانية بسبب تبني الكنيسة لمفاهيم أثبت البحث العلمي خطأها، وكذلك بسبب هيمنة الاستبداد الديني والعقائد المخالفة للعقل والمنطق العقلي، وبعد النهضة في أوربا وانهيار نظام الإقطاع

[١] ينظر: الفكر الإسلامي والتحديات المعاصرة، د. رعد الكيلاني: ص٢٩ .

والنبلاء واستغلال الفقراء، كل ذلك ساعد على انتشار العلمانية التي تدعو إلى تبني رؤية علمية عقلية لمسائل الحياة وما يشغل الإنسان في حياته، فقدمت العلمانية تفسيراً عقلياً مادياً، واستبعدت الإيمان بالروح والإيمان بالله وبوجوده، وساعد على انتشار العلمانية في العالم الإسلامي تخلف الفكر الموجه لعامة الناس الذين غلب عليهم الجهل والخرافة، وكذلك التفسير الخاطئ للدين وحقائق الدين، ويضاف إلى ذلك الاستبداد السياسي الذي مارسه الحكام في العالم الإسلامي، وتفشي الفقر والجهل والحرمان والطبقية كل ذلك أدى إلى ضعف الخطاب الإسلامي الذي كان يعيش وضعاً حرجاً مع غياب المعاصرة.

وشكلت العلمانية تحدياً كبيراً للفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية، وحفزت الكثير من المفكرين للبحث عن جذور الهوية الإسلامية في الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

٢. الحداثة والنزعة الإنسانية.

بعد عصر النهضة ظهرت في أوربا حركات إنسانية وفلسفات فكرية، ويحدد برتراندرسل أسباب النهضة في أوربا في أربع حركات كبرى وهي كما يؤشرها رسل كما يأتي:

١. النهضة الإيطالية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فقد عاد الاهتمام بالثقافة الدنيوية، وظهر ذلك جلياً في جميع الفنون والعلوم،

وكان يمثل خروجاً على التراث الكنسي السائد الذي كان يتبنى الإيمان بالغيب والعالم الأخروي الذي يمثل الخلاص.

٢. النزعة الإنسانية التي كانت ثاني العوامل الكبرى الجديدة المؤثرة في هذه الفترة، واقتصر تأثير النزعة الإنسانية على المفكرين والباحثين وظهر باحثون إنسانيون عظام.

٣. الإصلاح الديني الذي قام به لوثر وهو العامل الثالث من بين العوامل الكبرى التي ازالت عالم العصور الوسطى.

٤. إحياء الدراسات التجريبية وهو الذي حفز على التطور العلمي، وكان أهمها إعادة اكتشاف نظام مركزية الشمس على يد كوبرنيكس[1]، لقد كان الهدف الأساس للنهضة الأوربية هو تحرير الإنسان من الخرافة، وبذلك جعلت الفلسفة الغربية الإنسان سيد الموقف وهو أعلى قيمة في سلم الوجود، وإن العلم الحديث أعطاه قوة بلا حدود وبذلك تداعت الأنظمة السياسية القديمة التي أعطت لمجموعة من العوائل الأوربية والسلالات المالكة قيمة مقدسة فوق المسائلة، وبعد انهيار النظام السياسي تأسست النظم السياسية الحديثة، وكانت الديمقراطية هي نموذجها المثالي وتعني أن الحكم يمارسه الشعب والسلطة هي بيد الشعب، ولا توجد

[1] ينظر: حكمة الغرب، برتراندرسل، ترجمة فؤاد زكريا، ج٢، سلسلة عالم المعرفة: ص١٧ وما بعدها .

سلطة أعلى من سلطة الشعب، وكان الفكر الأيديولوجي لهذه النظرية هو العلمانية والعلوم الحديثة والمكتشفات والنظريات العلمية.

ويذكر رسل بأن الإنسان أصبح يحتل المكانة الرئيسة على المسرح، وحاولت الكنيسة تطويق انتشار البدع الجديدة ولكن دون نجاح كبير، واستطاعت محاكم التفتيش عام ١٦٠٠م أن تدين جوردانو برونو وتحكم عليه بالموت حرقاً.. غير ان هذا الحكم كشف عن مدى ضعف الموقف الذي كان من المفترض انه يدعمه، وفي الميدان السياسي بدأت مفاهيم جديدة للسلطة تتطور تدريجياً، وأخذ يضيق بالتدريج نطاق سلطة الحكام الوراثيين)[1].

وهكذا تم تطور المفاهيم في الغرب بصورة متوازية ولم يكن تطوراً فجائياً إنما كان هناك تطور في ميادين الحياة المختلفة في الأدب والفن والعلوم والدين، ومن هنا نشأت الحداثة وهي حركة تتبنى كل جديد من أجل إشباع حاجات الإنسان، فالنزعة الإنسانية هي ثمرة الفكر الحداثي والديمقراطية هي ثمرة الفكر الفلسفي العلماني، فالعلمانية هي صنو الحداثة وهي شقيقتها، واستطاع الغرب أن يحقق عن طريق العلمانية والحداثة نظاماً سياسياً واجتماعياً أكثر إقناعاً للمنطق العقلي والرؤية العلمية الجديدة، وهذا الأمر أثر في الفكر الإسلامي وتصور بعض

---

[1] حكمة الغرب / م. س: ص٢٤ .

المفكرين ان ما أنجزه الغرب يعود إلى الفلسفة الجديدة التي تبناها والتي أعلت من قيمة الإنسان أو ما يسمى بالنزعة العلمانية، وإن التطور مقترن بالعلمانية والحداثة والديمقراطية وهو أمر فيه الكثير من الجهل بطبيعة حركة التاريخ وتهيمن عليه الرؤية النسبية التي لا تدرك السنن الإلهية التي خلق الله الكون بموجبها.

من هنا فإن الفكر الإسلامي واجه حالة من التحدي الكبير فهو مطالب بإثبات صواب المنهج القرآني، وكذلك مطالب بإبطال الشبهات التي أثارها الفكر الغربي. وأهم واجب مطالب به الفكر الاسلامي المعاصر هو بناء مشروع حضاري يتسلح بالعلم والمعرفة والتطور وينهض بالامة، ويحقق لها استقراراً امنياً واجتماعياً ويبني اقتصاداً حراً مستقلاً وتطوراً علمياً ينافس العالم الغربي الذي يعاني من مشاكل مزمنة وخطيرة.

رابعاً: حقوق الإنسان وحرية المعتقد.

ظهر مصطلح حقوق الإنسان مع التيارات الفكرية والفلسفة الغربية الحديثة ووضع فلاسفة الغرب عدة لوائح تتضمن الحقوق الأساسية للإنسان، وكان من أهمها وأقدمها الميثاق الأعظم في بريطانيا سنة **١٢١٥**م، وكانت هذه اللوائح هي الدستور الذي يعبر عن الفلسفة الغربية في نظرتها للإنسان ودوره في الحياة، ثم تأسس على أثر الحركة الفكرية الإنسانية ولوائح حقوق الإنسان مجلس حقوق الإنسان التابع

للأمم المتحدة وللحق ان فلاسفة الإسلام أو أن الإسلام نفسه كان قد اهتم وأعطى قيمة عظيمة للإنسان وحياته على الأرض وكل ذلك يؤكد على ان الإنسان كائن متفرد في وجوده على الأرض فإن البشرية بحاجة إلى قيم وأخلاق أكثر من حاجتها إلى الإهتمام بالجانب الجسدي أو الفيزيولوجي (والدين الإسلامي المقدس كان ولا يزال يملك هذه الميزة وهي الاهتمام بالحقوق والأخلاق معاً، ويقول هربرت سبنسر: من أجل أن يكون للعدالة وجود خارجي يجب على الأفراد أن يحترموا الحقوق والامتيازات الطبيعية)[1].

وهذا يعني أن لائحة حقوق الإنسان لم تكن تعني في حقيقتها غير فرضية الحقوق الطبيعية والفطرية التي وهبها الخالق للإنسان وكمنت في فطرته ووعيه، ولو تأملنا مقاصد الشريعة الإسلامية لوجدنا ان الضروريات الخمسة وضعت حقوق الإنسان أساساً لها وهي الحقوق الأساسية الخمسة التي شرعت التعاليم لرعايتها وتحقيقها وصيانتها وهي:

١. حق الدين: وشرع لرعايته والدفاع عنه الجهاد بالنفس والمال وكل ما يملك الإنسان لحماية الدين ونشره بالدعوة والحكمة والموعظة الحسنة أو بالجهاد لرفع قوى الكفر التي تمنع الناس وتصدهم عن الإيمان.

٢. حق النفس أو الحياة: وشرع لرعايتها حرمة قتل النفس.

---

[1] نظام حقوق المرأة في الإسلام، مرتضى مطهري: ص١٤٤ .

٣. حق المال أو التملك: وشرع لحمايته حرمة السرقة.

٤. حق العقل أو الحرية الفكرية: وشرع لحمايته التفكر وحرية الاختيار وحرم العنف والإكراه لتغيير القناعة.

٥. حق النسل: وشرع لرعايته وصيانته الزواج وقوانين رعاية الجنين والتربية والكثير من التشريعات.

وبناء على ذلك فإن حقوق الإنسان في نظر الدين الإسلامي هي هبة إلهية وهي لا تكتسب ولا تورث وهي مرتبطة بوجود الإنسان وحق انتمائه الإنساني ولعلم أهم الحقوق التي اتفق فيها الإسلام مع الأديان والشرائع الأخرى هي:

١. حق المساواة: فكل الناس سواسية ولا فرق بين جنس وآخر أو لون وآخر أو عرق وآخر، ولا فضل لقومية على أخرى والناس تتفاضل بالعمل والإيمان والقيمة الإنسانية.

٢. حق الحرية: فالإنسان يولد حراً ولا سبيل إلى استعباده من قبل أي قوة في الأرض وهذه الحرية لابد أن يكفلها الشرع والقانون.

٣. حق الحياة: وهو حق وهبة الله للإنسان فلا يحق لأي قوة أن تسلب هذا الحق من الإنسان أو الاعتداء عليه إلا بأسباب ومبررات شرعية وقانونية.

وقد تضمنت لوائح حقوق الإنسان والوثائق التي تم تشريعها في الغرب، هذه الحقوق التي تعبر عن جوهر حرية الإنسان وقيمته الإنسانية وكرامته وهو أمر اتفق مع مقاصد وغايات الشريعة الإسلامية.

ولعل أهم هذه الحقوق هو حق الحرية الذي يشمل حرية الفكر والمعتقد وان الإنسان حر في اختيار معتقده وقناعته الفكرية، وهي مسألة أكد عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وفي الختام يمكن ان نسجل ان الفكر الاسلامي فكرٌ ثري في اصوله وفي مساره، وقد امد الامة بمقومات هوية ثقافية وديناميات حركية لمواجهة التحديات التي واجهت الامة. وما زال الفكر الاسلامي يعبر عن عمق اثر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتراث السلف الصالح من ائمة اهل البيت (عليهم السلام)، والصحابة الكرام في تحصين الامة ضد الحركات الهدامة والافكار المظلمة المتطرفة التي تحاول تعطيل المشروع الاسلامي الايماني لانقاذ الانسان في كل مكان وزمان.

[1] سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

المحتويات

المقدمة ١

الفصل الأول التمهيد والتعريف بالفكر الإسلامي ٤

الفصل الأول التمهيد والتعريف بالفكر الإسلامي ٥

تمهيد ٥

تعريف الفكر الإسلامي ٩

المبحث الأول: الفكر والعقل ٩

المطلب الأول: تعريف الفكر ٩

مكانة الفكر في المنظور الإسلامي: ١٢

محورية الفكر في القرآن الكريم: ١٤

أهمية الفكر عند أهل البيت (عليهم السلام): ١٨

نماذج من أدعية أهل البيت عليهم السلام في التعريف بالخالق وأسمائه وصفاته: ١٩

أهمية الفكر عند جمهور علماء المسلمين: ٢٥

تفسير القرآن الكريم والفكر الاسلامي ٢٧

المطلب الثاني: العقل ٣٥

المبحث الثاني: مرجعية الفكر الاسلامي وخصائه ٥٢

المطلب الاول: مرجعية الفكر الإسلامي ٥٢

المطلب الثاني: خصائص الفكر الاسلامي ٥٥

الفصل الثاني تأصيل الاختلاف في الفكر الإسلامي والعوامل المؤثرة في صياغة الفكر الإسلامي ٥٦

الفصل الثاني تأصيل الاختلاف في الفكر الإسلامي والعوامل المؤثرة في صياغة الفكر الإسلامي ٦٩

المبحث الاول: الخلاف وأثره في صياغة الفكر الاسلامي ٦٩

المطلب الأول: الخوارج. ٧١

المطلب الثاني: المعتزلة ٧٦

المطلب الثالث: الشيعة ـ الامامية ـ ٧٩

المطلب الرابع: الأشاعرة ٨٣

المبحث الثاني: ظهور الفكر الإسلامي. ٨٧

المطلب الاول: النشأة والتأسيس للفكر الإسلامي. ٨٧

المطلب الثاني: أسباب اختلاف المسلمين ٩٠

الفصل الثالث مجالات الفكر الإسلامي ومحاوره ٨٢

الفصل الثالث مجالات الفكر الإسلامي ومحاوره ٩٩

أ. أصول الدين عند أهل السنة: ١٠٢

ب. أصول الدين عند الأمامية: ١٠٣

ج. أصول الدين عند المعتزلة: ١٠٣

الأصل الديني والأصل المذهبي ١٠٥

ثانيا: الفقه الاسلامي وأصول الفقه واثرهما الفكري ١٠٧

نشأة المذاهب الفقهية ١٠٨

مفهوم الاجتهاد في الفقه الاسلامي. ١١٤

التجديد في الفقه ١١٧

الفقه المقارن واثره في اثراء الساحة الفكرية: ١١٩

ثالثاً: علم الكلام. ١٢٢

رابعاً: الفلسفة. ١٢٧

تعريف الفلسفة: ١٢٩

أصالة الفلسفة الإسلامية: ١٣١

خامساً: التصوف. ١٣٥

التمهيد: ١٣٥

تعريف التصوف والعرفان: ١٣٧

المدارس السلوكية: ١٤٠

المدارس الصوفية من حيث التقسيم المكاني: ١٤١

المبحث الثاني: المدارس الكلامية والفرق وأثرها في حركة الفكر الاسلامي. ١٤٤

ظاهرة التأويل: ١٥٠

التجديد في الفكر الاسلامي. ١٥٦

الثبات والتجديد جدلية العلاقة الفكرية. ١٦٤

الفصل الرابع علم الكلام وتطور الفكر الإسلامي ٨٢

الفصل الرابع علم الكلام والفكر الاسلامي ١٦٩

المبحث الاول: علم الكلام والدفاع عنه. ١٦٩

المطلب الاول: نشأة علم الكلام. ١٦٩

المطلب الثاني: كلام الله تعالى رؤية كلامية فكرية. ١٧٦

علم الكلام ودوره في الدفاع عن العقيدة ورد الشبهات: ١٨١

جليل الكلام أو طريقة المتقدمين: ١٨٣

دقيق الكلام (طريقة المتأخرين): ١٨٧

المبحث الثاني: ظهور الفكر الإسلامي الحديث ١٩٣

المطلب الاول: ظهور الفكر الإسلامي الحديث. ١٩٣

أسباب ظهور الفكر الإسلامي الحديث: ١٩٧

المطلب الثاني: الفكر الإسلامي الحديث التحدي والاستجابة ١٩٨

اولاً: التعددية والتعايش في الفكر الاسلامي. ١٩٨

ثانياً: حماية الاسلام للحقوق الفكرية: ٢٠٣

ثالثاً: مشروع التقريب بين المذاهب الاسلامية: ٢٠٤

رابعاً: المواقف السياسية للأمة الإسلامية ومبادئ الاصلاح:..... ٢٠٧

الاتجاهات المتطرفة التكفيرية. ٢١٠

الاتجاهات المعاصرة وأثرها في الفكر الاسلامي ٢١١

اولاً: العولمة. ٢١١

ثانياً: الديمقراطية والفكر الإسلامي. ٢١٦

ثالثاً: العلمانية والحداثة. ٢٢٢

رابعاً: حقوق الإنسان وحرية المعتقد. ٢٢٦